حكمة القرآن

في بناء المجتمع

عبد المعطي بيومي

الإهداء . . .

الى والدى الكريم ..

أهدى اليك هذا البحث كثمرة من ثمرات كفاحك ، ولعلنى بذلك أؤدى بعض حقك وجميلك ..

(المؤلف)

مقدمة . . .

ما أشبه الليلة بالبارحة ٠٠ !

قبل بزوغ الوحى الالهى على عالمنا ، كانت هناك قوتان تتنازعان العالم وكان العرب ، والشعوب الضعيفة ، مغلوبين على أمرهم ، بين العملاقين الكبيرين ٠

ولما هبط الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم ، تبدل وجه التاريخ ، وتغيرت موازين القوى ، واذا بالمسلمين الذين آمنوا بالوحى هم « خير أمة أخرجت للناس » ٠

ولكن الفلك دار بهذه الأمة ، وتغيرت عليها عوامل مختلفة وعادت موازين القوة فى العالم مرة أخرى ، سيرتها الأولى ٠٠ قوتين كبيرتين فى الشرق والغرب تتنازعان العالم ومن بينهما المسلمون والشعوب الضعيفة مغلوبون على أمرهم ٠

ولكن الجديد فى هذه الصورة ، ان الصراع بين العملاقين لم يعد بالقوة وحدها انما بالقوة والعقيدة ، بل القوة فى الصراع من أجل العقيدة ٠

فالصراع بين الراسمالية والشيوعية كمذهبين فكريين اجتماعيين يحاول كل منهما خداع الانسان بانه الطريق الأمثل لحياة كريمة رغدة ٠

وعبرة العبر ، فى الصراع القديم والحديث أن ذلك الكتاب الذى نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم هو عامل الحسم بين العملاقين فى الماضى والحاضر على السواء ٠

ذلك لأن الصراع الحديث ــ خاصة ــ يعتمد على حجة بناء المجتمعات الانسانية وتوفير الكرامة والحياة الرغدة للانسان ، وليس فى المذهبين ــ الرأسمالى والشيوعى ــ على السواء ، تلك الحكمة التى بنى بها القرآن مجتمع الانسان ٠

وفى كل يوم جديد تتبين الاخطاء والتراجعات فى كلا المعسكرين على السواء ولكن حكمة القرآن فى بناء الحياة الانسانية لم تسفر تجربتها عبر الأجيال عن مجرد خطأ واحد فى هذا البناء ٠

وفى هذا الكتاب الذى أردته أن يكون سهل الاسلوب ، مبسطا وموجزا ليكون فى متناول الناس جميعا على اختلاف اعمارهم وثقافتهم ، لم أقارن بين القرآن وبين أحد المذهبين المتنازعين ، لأن ذلك يحتاج الى وقت طويل وجهد ، رغم انه يساهم فى معرفة هذين المذهبين على حقيقتهما بعيوبهما وأخطائهما وتراجعاتهما ٠

ولكنى عمدت فقط الى بيان الخطوط العريضة لبناء القرآن للفرد وللاسرة وللحياة الاجتماعية جميعا ٠٠ ولبيان الحكمة القرآنية فى هذا البناء ٠

ولقد لفت القرآن أنظار العالم الى ان ما جاء به من تشريع هو الحكمة فى التشريع وان بناءه للمجتمع هو الحكمة فى البناء فلانفاق للانسان ولا خداع ولا دجل بل الحكمة والمصلحة البينة للانسان ٠

ولا ميل الى المادة وحدها

ولا تحطيم للموهبة الانسانية فى هدير الآلة

بل مادة وروح ٠ ٠وعقل وقلب ٠

ولست أدرى ‥ هل يفهم البشر عن البشر اكثر ممـــا يعرف الخالق عن مخلوقه « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ٠

ومن هنا ما كان ينبغى للمسلمين خاصة ان يحيدوا عن حكمة الله الى فلسفة الانسان أو ان يتراجعوا عن تشريع الله الحق الى تشريع الانسان الذى يتغير ويتبدل ويخطىء ويصيب « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ٠

لقد وقعت الرأسمالية والشيوعية معا فى خطأ بين حين جعلت كل منهما هدفها المـــادة ٠

- ابعدت الرأسمالية الدين عن الحياة ٠
- وكفرت الشيوعية بالله والأديان ٠

لأنه ليس بالمادة وحدها يحيا الانسان ، فالمـــادة وان وفرت شيئا من الرفاهية ، فانها لا تقيم بنيان الأخـــلاق ، ولا يقـــوم المجتمع ــ أى مجتمع ــ بغير الاخلاق ٠

ولهذا نرى القرآن الكريم يعالج الحياة الانســـانية ويبنى مجتمعه على أساسين متجاورين لا يكادان ينفصلان عن بعضهما البعض ٠ مجال روحى ومجال مادى حتى يتم فى النهاية من هذين المجالين مجتمع سعيد بلا مشكلات وبلا عراقيل تعطل سيره فى طريق الحياة ‥

وفى كل من المجالين يتدرج القرآن الكريم من الفـــــرد الذى هو الخلية الحية التى تتكون منها الاسرة ثم يترك الفرد

الى هذه الاسرة ومنها الى ما يتصل بها من رحم وقرابات ليتصدى بعد ذلك الى المجتمع عامة ليعالج مشكلاته ويرسى دعائمـــه ويخطط طريقه نحو الاصلاح والنجاح ..

ومع هذا يتعرض القرآن للحكومة الشورية التى اختارهــا نظاما للحكم فى مجتمعه ثم يفصل علاقة المحكومين بالحـــاكم وعلاقة الحاكم بالمحكومين حتى يتم التجاوب بـــين الراعى والرعية مما يحقق الوحدة الوطنية والرخاء والسلام فى مجتمع القـــرآن ..

وسنرى بعد ذلك وفى هذا البحث المتواضع تفصــــيل هذا الايجاز لنرى حكمة القرآن فى بناء المجتمع .

عبد المعطى محمد بيومى

الباب الاول

الايمان بالله أساس المجتمع

الباب الاول
الايمان بالله أساس المجتمع

جعـل القرآن الكريم أساس المجتمع والقاعدة التى تبنى عليها كل علاقة انسانية ، وتترتب عليها كل قيمة اجتماعية الايمان بالله وعبادته سبحانه • قال تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا) (١) •

فقدم عبادة الله التى تعنى تنظيم العلاقة بين الانسان وربه على كل علاقة بين الانسان وغيره من افراد المجتمع من الوالدين وما يتصل بهما وما يتصل بالفرد من كل افراد البشر •

ذلك لان عبادة اللـه هى عمـارة لقلب الانسان لا يشعـر معها بذلك الفراغ الذى يحسه اللادينيون •• ذلك الفراغ الذى تهون معه كل علاقة فى نظر الفرد وترخص معه كل القيم والمبادىء حتى تنعدم ومتى رخصت القيم أو انعدمت أصبح الانسان حيوانا أو كالحيوان لا يعترف بمجتمع ولا يحس معنى لنظام ، ولا يشعر بالخضوع المؤمن لقانون •

ومن أجل هذا عنى القرآن بعبادة الله لانها تغذى الايمان وتنميـه وهى كما يقول الشـيخ محمـود شـلتوت

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦ •

(سبيل قوى تنفذ منه أشعة الهدى والنور الى قلب المؤمن فتريه الخير خيرا فيعمله لنفسه ولغيره وتريه الشر شرا فيعصم منه نفسه وغيره وبهذا يكون الفرد مصدر خير ونفع لا شر فيه ولا ضرار) ٠

ولقد بين القرآن أن هناك نوعين من الايمان : ـ

١ ـ نوع ثابت فى القلب يطمئن صاحبه الى المستقبل ويبعث فى قلبه الهدوء والثقة بالله والاطمئنان والعمل فى الحياة وعدم السخط والحنق على ما يصيبه منها من خير أو شر ٠٠

٢ ـ ونوع آخر مهزوز لا يطمئن صاحبه الى شىء ولا يثق بشىء ولا يرضى عن شىء ان أصابه خير اطمأن به ورضى ، وان أصابه شر سخط على قدره وعلى الحياة واعتزل الناس الى منأى بعيد ينعى فيه حظه من الدنيا ويبكى جده من الحياة

(ومن الناس من يعبد الله على حرف فان اصابه خير اطمأن به وان اصابته فتنة أنقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين (١)) ٠

والقرآن يعطى الانسا نالفكرة واضحة ع نالله الذى جعل الايمان به أساسا للمجتمع ؟

فهو الله الذى يرى الانسان وان لم يره الانسان (يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور » (٢) « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » (٤)،وهو سبحانه واحد لا شريك

---

(١) سورة الحج ١١ ٠ (٣) ق ١٦ ٠
(٢) المؤمن ١٩ ٠

له هو الضار والنافع « قل هو الله أحد • الله الصمد • لم يلد ولم يولد • ولم يكن له كفوا أحد » • « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله » •

وهكذا نرى القرآن يشير الى أن هناك علم تام محيط بالانسان من لدن سلطة عليا لا يتطاول اليها متطاول قوية فى جبروتها عزيزة فى انتقامها كريمة فى صفحها وتسامحها سلطة تتحكم فى مصير الفرد ولكنها سلطة عادلة لا تظلم الناس شيئا وان ظلم الناس أنفسهم (ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها (١) • (ولا يظلم ربك أحدا (٢) •

ولذا ، وبمقتضى هذا العلم التام كان على الانسان ان يراعى حركاته وسكناته هذه المراقبة الدقيقة التى يثق العابد الحق فى حركاته وسكناته هذه القوة العليا التى يثق المؤمن بقوتها وعدالتها فلا ينبغى أن يضع نفسه الا موضع التقوى لله « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (٣) « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » •

وحكمة من القرآن فى بعث هذا الاساس قويا الى قلوب الافراد أغراهم بالعبادة ورتب على القيام بها الثواب والعقاب وحرضهم على تقوى الله وحثهم عليها فى أكثر آيات القرآن «يأيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم

---

(١) النساء ٤٠ •   (٢) الكهف ٤٩ •
(٣) الحجرات ١٣ •

سيئاتكم (١) « اتق الله حيثما كنت واتبع السـيئة الحسـنة تمحهـا » ٠

ومتى اتقى الفرد ربه وعرف انه لكل انسان بالمرصـاد « ان ربك لبالمرصاد (٢) » يرى سلوكه فى المجتمع ويجـازيه عليه بالخير ان كان حسنا وبالعقاب ان كان غير ذلك فلا بد أنه سيكيف سلوكه فى المجتمع على حسب هذه الرقابة العليا التى تأمره بكل خير وتنهاه عن كل شر وذلك هـو الايمان وذلك هـو الاثر الاجتماعى لعبادة الله ٠٠

---

(١) الأنفال ٢٩ ٠ (٢) الفجر ١٤ ٠

الباب الثاني

حكمة القرآن في تكوين الفرد

الباب الثانى

حكمة القرآن فى تكوين الفرد

تتجلى حكمة القرآن بوضوح عندمـــا نراه يصنع الفــــرد الاجتماعى أولا ، وقبل أن يضع أى تنظيم لاى ناحية من نـــواحى المجتمع فيهذب نفس الفرد ويطهرها من الامراض الخبيثة التى قد تقف عائقا دون انتشار اى تنظيم فى المجتمع ويخلص الانسان من أعدائه الذين يؤثرون على نفسيته وبهذا رسم الطريق المثلى لكل مصلح اجتماعى وأهاب به أن يمهد الارض قبل الغرس حتى تتقبل التربة ما يرد عليها من نبات فتغذيه وتنمـــــيه وتمنحه القوة والحياة .. !

وفى هذا المجال بين القرآن أن للانسان عدوين يحـــاولان أن يحيدا به عن جادة الطريق ويبذلان كل جهدهما فى اقصـــاء الانسان عن الحياة الرشيدة التى أعدها القرآن لافراد المجتمـــع الســـعيد ..

ولقد أوضح القرآن أن أحد هذين العدوين خارجى من خارج الانسان وثانيهما داخلى يكمن فى داخل الانسان ذاته ..

النفس والشيطان ..

نفس الانسان عدو له تأمره بالسـوء وتنأى به عن جانب الخير ..

يود الانسان لو ترك زمام نفسه لهواها أن يسيطر على هذه الارض بما وسعت من مال وعقار ، ويتمنى من كل قلبه لو اتت جموع الخليقة لتقبل الارض بين قدميه ، بل يود لو ملك السموات السبع والارضين وطاول الله فى سلطانه وشاركه ملكوته وكبرياءه ..

□

وفى تاريخ الانسانية من قديم وحديث تجارب عديدة للانسان مع نفسه وكم أضلت هذه النفس من أناس ..

وكم ألقت بأصحابها فى طريق التيه والضلال ..

فرعون مثلا ، ماذا فعلت به نفسه ؟! وماذا فعل مع هواه ؟!

لعب بنفسه الملك والقوة والثراء فطوعت له نفسه السوء وزينت له طريق الشر والغرور ، ولم يكن فرعون يومها سوى عبد للهوى والنفس فانطلق وراءها فبغى وطغى وأشر .. واستخف قومه فأطاعوه وتملك عليهم زمام الامور وحسب بغروره أنه ملك الدنيا بما فيها وما عليها وبلغ حدا من الغواية لا مزيد بعده بل لقد بلغ به الغرور والهوى الى ان عاند الله فى سلطانه واستعلى عليه فى ملكوته فجمع جمعا من الناس وصاح فيهم بصوته الجهير الذى يمتلىء غرورا ويفيض تيها وأشرا :

ـ « أنا ربكم الاعلى » « ما علمت لكم من اله غيرى »

واستعبدته نفسه وسخرت منه مخلوقا ضرب به المثل فى العبودية لشهوات النفس وحتى ارتفعت فى غرورها الى درجة ان جعلته يصيح فى موسى بعد ان أنكر دعوته ، وأنكر النــور الذى جاء معه وينادى هامان عامله :

ـ « يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب أســـباب السموات فأطلع الى اله موسى وانى لاظنــه كاذبا » « فأوقــد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لاظنه من الكاذبين » ••

وسواء كان التأكيد بأن واللام واسمية الجملة لكذب موسى أو بكذب الهه فقد بلغت نفس فرعون فى تسخيره هذا الحـــد الشنيع الذى توضحه الآيات من الجهل والحمق والتيه والغرور ما تبلغ نفس انسان ترك لها الزمام وألقى لها الحبـــــل على الغـــارب ••

ومن هنا كان القرآن فى غاية الحكمة حين بدأ يعالج هذا العدو المخيف المختفى فى ضمير الانسان والمنطوى فى كيانه ويضـــع الحلول السليمة العملية التى تقى الانسان خطر هذا العــــدو وتكفيه شره وتجعله يسير فى الحياة كانسان ســلم من النفس وبرىء من الهوى ••

قال ســبحانه وتعالى « ان النفس لامارة بالسوء » وقـــال « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » « أفرأيت من أتخذ الهه

هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون (١) » •

وإذا ما تحرر الانسان من عبودية نفسه وهواه أصبح بحالة يتقبل معها القيم الاخلاقية والمبادىء الاجتماعية فى يسر ويكيف سلوكه بمقتضاها بسهولة وبدون عناء ••

□

وعدو آخر لا يروج أى نظام اجتماعى ولا أى تخطيط انسانى بدون مقاومته ••

عـــدو من خارج الانسان ولكنه لا يقل خطرا ولا يقل بشاعة عن أهواء النفس فى الانسان ذلك العدو الذى أخذ العهـــد على نفسه من اللحظة الاولى للخليقة ليضلن الناس أجمعين وليملأن جهنم من الجنة والناس على حد سواء ذلك العدو الذى أعلن عداءه للانسان من يوم أن خلق الانسان ذلك هو الشيطان أقدم عدو لبنى آدم ••

لم تمض لحظة على خلق الانسان الاول حتى عصى الشيطان أمر ربه بالسجود لآدم وأعلنها حربا شعواء ضد المبادىء والمثل وكل قيم الاخلاق والاجتماع ••

قال الله تعالى للملائكة :

« انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين (٢) » •

---

(١) سورة الجاثية ٢٤ • (٢) الحجر ٢٨ ، ٢٩ •

فما أن تمثل آدم أمام الملائكة حتى خروا سجدا الا ابليس « أبى واستكبر » و « لم يكن من الساجدين »

وسواء كان تأخره عن السجود ليرى من المتخلف عن أمر الله كما يقول بعض المفسرين ، أو كان يقصد التخلف من البداية فقد أخذته نوبة من التعالى الكاذب والغرور الطائش وتبلورت فى رأسه فكرة الكبرياء فتبجح فى جواب الله اذ سأله :

ـ « ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك ؟ » •

ـ « قال : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين (١)

وكانت سقسطة برر بها كبرياءه وغروره وتعاليه على أمر الله ذلك الدليل الواهى الذى ساقه ليبرهن به على فضله بمادته على آدم بمادته وكان يكفى بعدها أن يطلب الصفح من الله فيجد الله عنده ولكنه أبى الا أن يتقبل الطرد واللعنة الى يوم القيامة حتى يتمكن من اضلال أكبر عدد ممكن من أفراد ذلك الانسان الذى تسبب أو كان خلقه ـ فى زعمه ـ سببا فى طرده من رحمة الله •

ـ « قال فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين » « وان عليك اللعنة الى يوم الدين » ،

« قال انظرنى الى يوم يبعثون ، قال انك من المنظرين ، قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين قال اخرج

---

(١) سورة الاعراف الآية ١٢

منها مذءوما مدحورا لمن تبعـــك منهم لأمـــلأن جهنم منـــكم أجمعين (١) » ٠

ومضت تلك الساعة المشحونة بذلك العهد المشئوم بالعداوة بين الانسان والشيطان ٠

وسبق فى علم الله ما أضمره الشيطان لآدم وما أعلن عنه من الافساد والاضلال فزوده بما شاء مـــن التحذيرات ٠

« فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما مـــن الجنة فتشقى (٢) » ٠

« وخلق الانسان ضعيفا (٣) » كما قا لالله ، فلم يثبت طويلا فى الصراع بينه وبين عدوه ولم يطل به المكث فى الجنة حتى تسلل وراءه الشيطان يحاول أن يرده عن أمـــر الله وكان له ما أراد ٠

وسوس الى نفسه وزين له الأكل من الشـــجرة التى حرم الله فلما فعل هو وزوجته « بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة (٤) » « وعصى آدم ربـــه فغوى (٥) » واخرجه الله طريدا من جنته وذهب يضرب فى الارض على غير هدى « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ٠ قـــال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعضعدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبعهداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » (٦) ٠

---

(١) سورة الاعراف الآية ١٤ ـــ ١٨ ٠(٤) سورة الاعراف الآية ٢٢ ٠
(٢) سورة طه الآية ١١٧ ٠ (٥) سورة طه الآية ١٢١ ٠
(٣) سورة النساء الآية ٢٨ ٠ (٦) طه ١٢٣ ، ١٢٤ ٠

وكذلك تمت اول تجربة بين الانسان والشيطان هزم فيها الانسان حتى يتزود فى صراعه مع ذلك العدو بسلاح التجربة عبر الاجيال ولتتمكن فى نفس آدم ونفوس أبنائه من بعده آيات القرآن الكريم فى التحذير من الشيطان ، وابطال ما يدخل به على النفس من وساوس وأحابيل .

وما أكثر ما نبه القرآن على أن الشيطان عدو الانسان الاول ونبه من خطره وحذر من شره وضرره ، وأمر الفرد بأن يكون دائما على وعى من وساوسه وبأنه يقوده دائما الى الفشل فى الحياة وفى الآخرة .

« ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون (١) » « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء (٢) « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة (٣) » « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (٤) » .

وهكذا ينادى القرآن فى أكثر من آية وسورة أفراد الانسانية ليأخذوا حذرهم من عدوهم القديم قد مالزمن حتى لا يقعوا فى شراكه ، وحتى لا يغرهم خداعه ، ذلك الخداع الذى يغرى به أصحاب القلوب الضعيفة والنفوس المريضة « لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين » حتى اذا أضلهم وأخذهم بعيدا

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٨ ، ١٦٩
(٢) سورة البقرة الآية (٢٦٨) .
(٣)سورة الاعراف الآية ٢٧ .
(٤) سورة فاطر الآية ٦ .

عن طريق الحق والخير تتنكر لهم وتخلى عنهم وبانت لهم حقيقته عارية صريحة بعد ان أخفاها عنهم حتى ضمهم الى حـــزبه وعشيرته ذلك الحزب الذى بين القرآن مصيره « أن حـــزب الشيطان هم الخاسرون (سورة المجادلة ١٩) » « كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر ، فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين • فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين (سورة الحشر ١٦ ، ١٧) » •

ولقد لفت القرآن نظر الذين قد يحسبون أن المراد بالشيطان شيطان الجن وحده الذى صرح بالعداوة لآدم ولأبنائه فحسب لفت القرآن النظر الى أن من الشياطين نوعا قد يكون أخطر من شيطان الجن وأكثر أضلالا وافسادا للانسان •

ذلك لأن هذا النوع من الشياطين قد يكون من الناس فان الانسان اذا ما أساء السلوك وتجرد من القيم الانسانية فانه ينقلب شيطانا ملعونا أشد فى الاضلال والافساد من الشيطـــان الجنى المعروف لدرجة أنه لا يتحـــرج حتى من محاولة الجـــدال والمكابرة •• مع الأنبياء •

« وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الأنس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا (سورة الانعام ١١٢) » •

فعـــلى الانسان اذن أن يتحـــرر من عبوديته للشيـــاطين المتسترين وللشياطين فى ثياب الانسانية •

واذا رأينا القرآن بهذه المثابة يعمل على تحرير الفرد من

خداع النفس والشيطان ومن وسوستهما ويخلص الانسان من أعدى أعدائه لينطلق فى الحياة آمنا ضميره ، مستقرة نفسه سليمة دخيلته ، ليكون بعد ذلك تربة صالحة لتلقى أوامر الله التى تأمره باستقامة السلوك وحسن العلاقات مع افراد الانسانية جميعا ، حتى يصلح الفرد فى المجتمع القرآنى لتكوين نواة صالحة لمجتمع صالح بلا عقد وبلا مشكلات وبلا أدواء .

□

والقرآن بعد هذا وقد هيأ الانسان ومهده لقبول أوامره ونواهيه عمد الى تهذيب روح الفرد اجتماعيا وأدبيا ، باعتباره لبنة المجتمع التى يتكون منها وقد سلك القرآن فى سبيل ذلك مسالك عدة منها :

أولا .. انه دفع الانسان الى التفكير والتفكير الحى المرن فى ملكوت السموات والارض واقتفاء آثار القوة العليا التى خلقت هذا الكون على هذا النظام من الروعة والاعجاز .

وقد اتخذ القرآن فى سبيل ذلك أيضا عدة اساليب تساعد كلها على مضاعفة الدوافع فى نفس الانسان الى التفكير والنظر .

فتارة نجده يتحدث عن هذا العالم باعتباره مخلوقا خصيصا لمنفعة الانسان لا لمجرد العبث والتلهى « ربنا .. ما خلقت هذا باطلا سبحانك ، وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين (٢) » « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا (٣) » .

وتارة نجده يؤكد أن الله وقد خلق هذا الكون للانسان أقدره

(١) سورة آل عمران الآية ١٩١ . (٣) سورة البقرة الآية ٢٩ .
(٢) سورة الانبياء الآية ١٦ .

على تسخيره ومكن له منه « ألم تروا أن الله سخر لـــكم ما فى السموات وما فى الارض وأسبغ عليكم نعمه ظـــاهرة وباطنـــة (لقمان ٢٠) » ٠

وتارة ثالثة نجده يلفت انظار البشر نحو طائفة بعينها من المخلوقات لخاصية فيها مميزة لها ، أو باعتبارها موارد لـــثروة الانسان حيوانية او نباتية مثل قوله تعالى : « والشمس وضحاها، والقمر اذا تلاها (الشمس ١ و ٢) » « والعاديـــات ضبحـــا » « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (النحـــل ٥) » « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشـــابه (الانعام ١٤١) » « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحمـــا طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها (النحل ١٤) » « ومـــن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود (فاطر ٢٧) » ٠

وهكذا نرى القرآن يدفع الانسان الى التفكير فى ما حوله من الكائنات تفكيرا حيا نابضا منبعثا من القلب ليحقق الغاية المرجوة من ورائه فى تنقية الفطرة البشرية التى فطر الله الانسان عليها وتخليصها من ألوان الشرك ومن كل ما يطمس صورة التـــوحيد ومن كل ما يحول دون سعادة الانسان وفى الوقت ذاته يدفعه الى السيطرة على هذه الكائنات التى قد تنفعه فى حياته ٠.

ثانيا ٠٠ أن القرآن حدد علاقة الفرد بما يحيط به من مظاهر الزينة ومتع الحياة باعتبارها أدوات للاغراء واقبال الانســـان عليها أمر تحتمه طبيعته « وانه لحب الخير لشديد (العاديـــات

٨) » « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنياوالله عنده حسن المآب (آل‌عمران ١٤) » ٠

وانما يبيح القرآن هذه الطيبات على أساس انها من نعم الله التى يجب أن يقبلها العبد ، ويحب الله أن يرى أثرها عليه « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا (المؤمنون ٥١) » « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم (البقرة ١٧٢) » « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين (المائدة ٩٣) » « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير (الاعراف ٣٦) » « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ٠ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة (الاعراف ٣١ ، ٣٢) » ٠

ولكن علينا أن ننبه أن اباحة القرآن للزينة والطيبات من متع الحياة لم تكن اباحة مطلقة حتى يفتح للفرد سبيل الاسراف والشهوة والبذخ والترف وهو كتاب الدين الوسط والاعتدال ٠٠ « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس (البقرة ١٤٣) » ٠

انما كانت اباحته لهذه الاشياء اباحة مقيدة بعاملين :

أولهما ٠٠ حسن النية ومراعاة الله فى الاستعمال وشكره بـــلا تفاخر ولا خيلاء ٠

ثانيهما ٠٠ الاعتدال « ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفـــين (الاعراف ٣١) » « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (المائدة ٨٧) » « فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة اللـــه ان كنتم اياه تعبدون (النحل ١١٤) » ٠

ذلك لان الاسراف والبذخ هاوية تبتلع المكارم والقيم وتجرف كل مبادىء الاخلاق والاجتماع وتبعث على الفساد والانحـــلال والتدهور ٠

ثالثـــا : ان القرآن أوجـــد نوعا من التوازن بين الماديـــــة والروحيـــة فى نفس الانسان فهـــو يحارب المادية المحضـــــة والتكالب على الدنيا ويحقرها ويقلل من قيمتها بنصوص كثيرة من مثل قوله تعالى « وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » ٠

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ٠

ذلك لأن المادية البحتة تقتل الروح المعنوية فى نفوس الأفراد وتعطل القيم وتقضى على المبادىء والمثل ٠

فى نفس الوقت الذى يحارب فيه القرآن المادية البحتة يحارب الروحية الخالصة والانصراف عن الدنيا التى فيها زاد الانسان ومعاشه ، ويهيب بالفرد أن لا ينسى نصيبه من هذه الدنيا ، بل عليه أن يكابد فيها طالبا نصيبه منها « ولا تنس نصـــيبك مـــن

الدنيا (١) » « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ٠ اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون (٢) » ٠

كما يدفع القرآن الفرد الى العمل ويحض عليه ، بجانب دعوته الى الله والعمل للحصول على الرزق تقوية للعمل فى سبيل الله ووسيلة اليه « هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور (٣) » « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله (٤) » « انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى (٥) » « ان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا (٦) » ٠

لأن الروحية الخالصة بدورها هى الأخرى تقضى على قوى العمل وتعطل موارد الانتاج وتسبب الضعف والفقر والفاقة والحرمان الشيء الذى رده القرآن وعابه على الأحبار والرهبان « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم (٧) » ٠

ولقد كان سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم تطبيقا عمليا لما جاء به القرآن الكريم فكان عليه الصلاة والسلام كما قال « انى لأخشاكم لله وأتقاكم ولكنى أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » « ليس فى دينى ترك النساء واللحم ولا اتخاذ الصوامع » ٠

ولقد عبرت هذه الموازنة بين المادة والروح عن ادراك لطيف

---

(١) القصص ٧٧ ٠
(٢) هود ١٥ ، ١٦ ٠
(٣) الملك ١٥ ٠
(٤) التوبة ١٠٥ ٠
(٥) آل عمران ١٩٥ ٠
(٦) الكهف ٣٠ ٠
(٧) الحديد ٢٧ ٠

واع للانسان ٠٠ ادراك الخالق لما خلق وما يحتاجه من حظوظ مادية وحظوظ روحية مما أوجد فى الانسان نوعا من الروحية المهذبة التى لا تقتل صاحبها فى صوامع الرهبنة وأديار التزمت ولا تمرغه فى أحضان المادة ٠٠ تلك الروحية الوسط التى تلهم السلوك الفاضل والسير المستقيم ٠

رابعا : ان القرآن قرر للانسان حقوقا سبق بتقريرهـــا كل حضارات العالم وشرائع الانسانية الوضعية التى يدعى الغرب أسبقيته الزائفة فى تقريرها ٠

فلقد نزل القرآن بصراحته المعهودة « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا [١] » فكان الانسان فى القرآن أكـــرم من كثير فى هذا الوجود ٠٠ من أجله خلق الكون ومن أجله سخرت الكواكب والنجـــوم والسموات والارض وغيرهـــا من العوالم والأجرام،فرفع القرآن بذلك من شعور الفرد بسموه عما دونه من الحيوان والجماد فلا ينبغى أن ينزل عن هذا المستوى الـــرفيع بما ينقصه من سلوك الحيوان أو حركات الجماد ٠

كما كفل القرآن للفرد حقوق الاخاء والمساواة وحقوق الحرية والحياة فلا فضل لانسان على انسان فى شريعة القرآن فلا رق ولا استعباد « ان أكرمكم عند الله أتقاكم [٢] » « متى استعبدتم

---

(١) سورة الاسراء الآية ٧٠ ٠
(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ ٠

الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » كما قال عمر بن الخطـــاب لعمرو بن العاص .

واذا كان الناس سواء فهم أخوة من أبوين « كلكم لآدم » « أنما المؤمنون أخوة [١] » « المؤمن أخو المؤمن لا يظلمـــه ولا يخذله » .

وكذلك حرر القرآن الانسان من سيطرة الغير ، لأن هذا الغير أخ لـــه مساو فى كافة الحقوق والواجبات فقد اعترف لـــــه بحق الحياة وبما يجعل له هذه الحياة حرة كريمة عزيزة وبما يحفظها عليه .

ففى مجال الاعتراف بحق الحياة يقول القرآن « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق [٢] » وفى مجال م ايحفظ هذه الحياة قرر الدفاع عن النفس « من قتل دون نفسه فهو شهيد » ، وحظر انتزاع الحياة من الانسان الا للولى فى مجال القصاص حرصـــا على المصلحة العليا للمجتمـــع « ولكم فى القصاص حياة [٣] » ، كما حرم الانتحار والتخلص من الحياة لأى سبب من الأسباب فان الحياة من الله وحده يمنحها من يشاء وينزعها ممن يشاء فله وحده دون سواه حق المنع والاعطاء لهذه الحياة « ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رؤوفا رحيما [٤] » حتى لقد شدد القرآن فى هذا السبيل فنهى الفرد حتى عن تعريض نفسه للمخاطرة بحياته « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة [٥] » .

---

(١) الحجرات ١٠ .
(٢) الاسراء ٣٣
(٣) البقرة ١٧٩ .
(٤) النساء ٢٩ .
(٥) البقرة ١٩٥ .

ولأجل أن تكون هذه الحياة حياة حقيقية يتمتع بها صاحبها لا يكبتهـا رق ولا تهضمها عبوديــة ، فقد قرر القرآن الحــرية للانسان والحرية بمختلف أنواعها من الحرية الشخصية ، الى الحرية السياسية ، الى الحرية فى الدين الذى يرتضيه الانسان أيا كان على خطأ أو على صواب وعلى كل من الاختيارين ثواب أو عقاب •

ففى باب الحرية الشخصية : أباح له حرية التملك والاقامــة والتنقل والتعبير والعمل والتصرف حسبما يريد الانسان على ألا تكون حرية مجنونة رعناء تدوس على شعور الغير وتنتهك حريات الآخرين •

وفى الحرية السياسية : أباح له حق ابداء الرأى وحق الانتخاب والمبايعــة وحتى قرر له حق نقد الحاكم الأعلى للبلاد فى حــدود مصلحة هذه البلاد على ألا يبغى بالنقد غير سبيل الحق والرشاد كما قرر له العصيان والخروج عن طاعة الرئيس اذا أمر بمعصية أو نهى عن عبادة « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » •

أما الحرية فى العقيدة : فقد أفسح لها القرآن المجال وأطلقها من كل عقال يمكن أن يشلها أو يقيد حركتها ، فلقد قــال القرآن بوضوح وصراحة لا تحتمل اللبس أو الغموض « لا اكراه فى الدين [١] » « لست عليهم بمسيطر [٢] » « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر [٣] » وترك القرآن لمخالفيه فى العقيدة الحــرية فى مزاولة شــعائر عقيدتهم ومراسيم دينهم « أمرنا بتــركهم وما

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .
(٢) سورة الغاشية الآية ٢٣ .
(٣) سورة الكهف الآية ٢٩ .

يدينون » كما أوجب القرآن احترام آرائهم فيما لا يمس العقيدة الاسلامية أو ينال منها ومعاملتهم مثل المسلمين على حد سـواء « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » فلا اكراه باسم الدين ولا اضطهاد باسم العقيدة .

وبهذه الحقوق التى قررها وكفلها القرآن للانسان تمثلت حقيقة هامة وخطوة حاسمة فعالة فى سبيل تكوين الفرد وتكوين المجتمع .

خامسا : اتجـه القرآن بعد ذلك الى اقامـة أخـلاق الفرد عـلى دعائم متينة من قوة الشخصـية وكمـال الرجولـة والشجاعـة « والـذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون [1] » « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المـؤمن الضعيف » « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم [2] » والحياء « لكل دين خلق وخلق الاسلام الحياء » والصـبر على المكاره والجلد أمام الشدائد والمحن « وبشر الصابرين [3] » « يأيهـا الذين آمنوا اصبروا وصابروا [4] » والأمانة « أن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها [5] » والوفـاء بالعهد « واوفـوا بالعهد أن العهد كان مسئولا [6] » والاخـاء والتعاون « انمـا المؤمنون أخوة [7] » « وتعـاونوا على البر والتقـوى [8] » والعفو والصفح « وأن تعفو أقرب للتقوى [9] » « فمن عفـا وأصلح فـأجره عـلى اللـه [10] » والصـدق « يا أيهـا

(١) الشورى ٣٩
(٢) سورة محمد الآية ٣٥ .
(٣) البقرة ١٥٥ .
(٤) سورة آل عمران ٢٠٠ .
(٥) النساء ٥٨ .
(٦) الاسراء ٣٤
(٧) الحجرات ١٠
(٨) المائـدة ٢
(٩) البقرة ٢٣٨
(١٠) الشورى ٤٠

الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين [1] » وطهارة اللسان والمنطق « ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم (٢) » « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب [3] » والبعد عن الغيبة والنميمة « ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم [4] » كما نهى الفرد عن التسرع فى الظن وسوء الحكم على الاشياء « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم [5] » « يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين [6] .

كما دفع الفرد الى غرس شجرة الاصلاح فى المجتمع بين الناس حتى لا يشيع الفساد وينتشر وتعم الفتنة فتأكل الأخضر واليابس وتدمر كل شىء « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين انما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم [7] » كما أمره بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك هم المفلحون (٨) » « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون

(١) التوبة ١١٩
(٢) القلم ١٠ ، ١١
(٣) الحجرات ١١
(٤) الحجرات ١٢
(٥) الحجرات ١٢
(٦) الحجرات ٦
(٧) الحجرات ٩
(٨) آل عمران ١٠٤

بالمعروف وتنهون عن المنكر [1] » « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان »٠

الى غير ذلك من الصور الاخلاقية والآداب الاجتماعية التى حفل بها القرآن مما لا يتسع له هذا البحث الموجز ٠

سادسا : ويضاف الى ما سبق فى مجال تكوين الفرد تحديد المسئولية فى القرآن الكريم ٠

ولقد جاء القرآن فى هذا الباب أعنى تحديد المسئولية وتقدير الثواب والعقاب على الفعل بما لا يستطاع التعبير عنه الا بالحكمة الألهية فلم يرد القرآن أن يلقى على كاهل الانسان تكليفا أو مسئولية الا بعد تربية ضمير الانسان وتهذيب روحه وارضاء غرائزه فى حدود المعقول وتحريره من أعدائه من النفس والشيطان ٠

أقول : بعد أن قدم القرآن ذلك فى تكوين الانسان بدأ بالقاء المسئولية عليه لئلا تكون هناك حجة يحتج بها الانسان يوم يلقى الله ٠

على أن القرآن تفرد دون غيره من كتب وشرائع بشىء أهم وأعظم وأنفع وأجدى للانسان ذلك هو تحديد المسئولية الشخصية والقاء الجزاء عليها محددا بعمل الانسان وحده دون سواه ٠

---

(١) آل عمران ١١٠

ولقد جاء فى التوراة شريعة موسى وعيسى التى سرى عليها عمل الناس حقبا طويلة أن المذنب يؤخذ بجريرته وجريرة آبائه وبنيه وقد يؤخذ الشعب كله بجريمة طائفة منه ولو كانت قلة قليلة ٠

كما كان المذنب فى عرف الجاهلية الاولى يلقى جزاء عمله وعمل عشيرته وقد تؤخذ القبيلة كلها بذنب واحد منها وقديما قال الشاعر الجاهلى :

* قد يؤخذ الجار بجرم الجار *

حتى أعلنها القرآن بمنتهى الصراحة والوضوح « الا تزر وازرة وزر أخرى وان ليس للانسان الا ما سعى (١) » « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها (٢) » ٠

« من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (٣) »

فليس من المنطق وليس من العدالة أن يحمل انسان وزر انسان أو يعاقب أحد بجريمة غيره وتلك هى الروعة ! وتلك ــ فى الوقت نفسه ــ معالجة الأحداث فى ضوء من العدل والواقع ٠٠ !

□

(١) سورة النجم الآية ٣٨ ، ٣٩ (٢) سورة فصلت الآية ٤٦
(٣) سورة الاسراء الآية ١٥

قال تعالى : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يو مالقيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا [1] » .

هذه هى المسئولية فى القرآن كل انسان مكلف فى هذه الحياة ومسئول عن أعماله وسلوكه وعليه كرام كاتبون عن يمينه ويساره يدونون مفردات هذا السلوك من سيئات وحسنات فاذا جاء يوم النهاية نشرت الصحف ووزعت الكتب ووقف الفرد أمام أعماله وجها لوجه لا يستطيع اخفاء سيئة من سيئاته والافسيشهد الكتاب فى يده وستشهد عليه جوارحــه التى مارست الفعل وزاولــت السلــوك « وان عليكم لحافظين . كرامــا كاتبين يعــلمون ما تفعلون [2] » « اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول الا لديـــه رقيب عتيد [3]

« حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون [4] » « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . .يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين [5] » وما دامت الاعمال كلها مسجلة عند الله « فى كتاب لا يضل ربى ولا

---

(١) سورة الاسراء الآية ١٣ ، ١٤
(٢) سورة الانفطار الآية ١٠ ، ١١ ، ١٢ .
(٣) سورة ق الآية ١٧ ، ١٨ .
(٤) سورة فصلت الآية ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢
(٥) سورة النور الآية ٢٤ ، ٢٥ .

ينسى [١] » وسيحاسب كل انسان على عمله وسيأخذ بمقتضى هذا العمل وعلى قدره من الثواب أو العقاب« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره [٢] » « كل أمرىء بما كسب رهين [٣] » « كل نفس بما كسبت رهينة [٤] » •

« يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون [٥] » « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين [٦] » •

ما دام الامر كذلك ، فعلى الفرد فى المجتمع القرآنى أن يلاحظ ما يحيط به من كتبة لسلوكه وما ينتظره من حساب دقيق على مقدار حبة الخردل من هذا السلوك وعلى الفرد كذلك — كل فرد — مسئوليات يلقيها على عاتقه وضعه الاجتماعى وعليه القيام بكافة هذه المسئوليات والا تعرض للسؤال والعقاب « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » •

فالموظف مثلا مسئول عن شئون وظيفته مسئول أمام ضميره المسلم وأمام الله يو م السؤال والزارع مسئول عن زراعته والتاجر مسئول عن أمانته وذمته والطالب مسئول عن مال وليه فيم ينفقه ، وعن شبابه فيم يضيعه ؟ وعن علمه ماذا جنى من ثماره ؟ وهكذا كل فرد فى المجتمع مسئول فى محيط عمله يوم تنصب الموازين القسط وتوفى كل نفس ما عملت •

---

(١) سورة طه الآية ٥٣
(٢) سورة الزلزلة الآية ٧ ، ٨
(٣) سورة الطور الآية ٣١
(٤) سورة المدثر الآية ٣٨
(٥) سورة النحل الآية ١١١
(٦) سورة الانبياء الآية ٤٧

وليس أمام الفرد بعد ذلك غير طريقين : طريق الهلكة وسوء المصير الناتج من أهمال مسئولياتـــه وخيانتهـــا ٠ وطريق النجاة وسعادة المستقبل فى الوفاء بمسئولياته وحسن سلوكه فى هـــذه الحياة « فريق فى الجنة وفريق فى السعير [1] » ٠

وليس من هذين الطريقين مخلص وليس عن أحدهما محيد ، فلا ينفع الاحتجاج ــ أى احتجاج ــ بعد أن قدم القرآن كـــل ذلـــك ٠

ولقد ذكر القرآن فى هذا المجال صورا مروعة مهولة لطائفتين تتحاوران فى النار طائفة مجرمة بطبيعتها وطائفة أخرى لم تأخذ تكوين القرآن لها مأخذ العمل والايمان فأغرتها الاولى بالاجرام فالتقيا معا فى العذاب ٠ ٠وجرى بينهما هذا الحوار « ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القـــول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ٠

قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين ٠

وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا ٠

« وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون [2] » « اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بينهم الاسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك

---

(١) سورة الشورى الآية ٧ (٢) سورة سبأ الآية ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣

يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار [١] »
« وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا : انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذا بالله من شىء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ، ما لنا من محيص .. وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى انى كفرت بما اشركتمونى من قبل : ان الظالمين لهم عذاب اليم [٢] » .

وبعد كل ذلك فتح القرآن باب التوبة وغفران الخطأ لمن وقعوا مرة تحت تأثير نفس أمارة بالسوء أو شيطان مغر بالخطأ أو انسان مغو بالذنب والاثم .. فتح باب التوبة لتتحقق أمام العبد فرصة يرجع فيها الى ضميره المؤمن وقلبه فلا يجتر فى حياته مرارة الخطيئة فيبتعد عن السلوك الطيب ويدفعه اليأس الى الجريمة وانتهاك المسئولية

« ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات [٣] » .

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم . وانيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٦، ١٦٧ (٣) سورة التوبة الآية ١٠٤
(٢) سورة ابراهيم الآية ٢١ ، ٢٢

بغتة وأنتم لا تشعرون ٠٠ ان تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله ، وان كنت لمن الساخرين ، أو تقول : لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ٠ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكــون من المحسنين ٠٠ بلى قد جاءتك آياتى فكــذبت بهـــا واستكبرت وكنت من الكافرين [1] » « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما [2] » لتكمل الصورة وليضيع كل احتجاج بالنفس أو بالغير أمام الله ٠

وبعد أن أعد القرآن الفرد روحيا لتقبل رسالته فى المجتمـــع ــ على هذا النحو ــ أعده ماديا وكان من روعة حكمته أن أعده بحيث لا يغرق نفسه فى أوحال المادة التى من أجلها ضل الكثيرون وحادوا عن سواء السبيل ففشلوا وفشلت مجتمعاتهم ٠

فنهى القرآن الانسان عن الاسراف والتبذير بل شدد عليه الأمر بالاقتصاد والتوفير والاعتدال فى الانفاق « ان المبذرين كـــانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفــورا » (الاسراء ٢٧) وبشىء يسير من اعمال العقل والتفكير تنتهى المقدمتان الى نتيجة لا تقبل التأويل : ان المبذرين اخوان الكافرين ٠

ويستمر القرآن فى اقناع المسرفين بالحجة والقياس ويهددهم بنتائـــج الاسراف ٠٠ من الفقــر والفاقـــة والحرمـــان عـــلى الا يدفع الحرص الى البخل والتقتير « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا (الاسراء ٢٩) » فان البخل مرتعه وخيم وعاقبته أوخم « الذين يبخلـــون

---

(١) الزمـــر ٥٣ الى ٥٩ .   (٢) النساء ١٧

ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » (النساء ٣٧) ٠

والفرد المثالى ـ ماديا ـ فى نظر القرآن انما يكون من الذين قال عنهم « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (الفرقان ٦٧) » ٠

ولقد حث القــرآن الفرد على العمل وطــلب الرزق « هــو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشــوا فى مناكبها وكــلوا من رزقه (الملك ١٥) » ٠

ولفت نظره الى موارد الثروة الطبيعية في الأرض وحدا به الى تسخيرها والانتفاع بهــا « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (النحل ٥) »

كما نهى القرآن الانسان عن الاحتكار « والــذين يــؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانــا واثما مبينا (الاحزاب ٥٨) » ٠

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم « من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برىء من الله وبرىء الله منه » و « الجــالب مرزوق ، والمحتكر ملعون » ٠

كما نهى عن استغلال حاجة المحتاج لأنه ينافى التراحم بين الاخوة التى فرض الله قيامها بين الناس « وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة (البقرة ٢٨٠) » ٠

وقال صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمــه ولا يسلمه ومن تركه يجوع ويعرى وهو قادر على اطعامه وكسوته فقد أسلمه » ٠

وحذر القرآن من تطفيف الكيل والميزان : « أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ٠٠ وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين (الشعراء ١٨١ — ١٨٣) فسمى هذا فسادا ٠٠ وويل لمن سعى بالفساد بين الناس « ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها (الاعراف ٨٥) » « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيـــا ولهم فى الآخرة عـــذاب عظيم (المائدة ٣٣) » ٠

ولقد نهى الرسول عن النجش وعن البيع على البيع تفاديا للصدام بين الفرد وغيره « لاتناجشوا » « ولا يبع بعضكم على بعض » كما أمر ببذل النصيحة للمشترى « الدين النصيحة »

ولقد شرع الله خيار الرؤية وخيار العيب فى البيوع لتنتظم المعاملة بين الناس ويمحى الغش من دولة القرآن « فمن غش أمتى فليس منى » ٠

ثم أمر القرآن الفرد بعد كل هذا بأداء الزكاة وجعلها ركنا من أركان الدين يقتل مانعها اذا كان جاحدا لها « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم (الذاريات ١٩) » ٠

ولقد قاتل أبو بكر الصديق رضى الله عنه المرتدين بعد وفاة الرسول على منعهم الزكاة ، حتى أخذها منهم بقوة السيف « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » ٠

ورغب القرآن بعد الزكاة فى بذل الصدقة والاحسان والانفاق على أوجه البر والخير العام « مثل الذين ينفقـــون اموالهم فى

سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ٠٠ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا أذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون (البقرة ٢٦١ ـ ٢٦٢) » « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون (الانعام ١٦٠) » « وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون (الانفال ٦٠) » « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا ، وعملوا الصالحات وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين (المائدة ٩٣ » « وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لا يحب المفسدين (القصص ٧٧) » ٠

ولقد جلس الرسول مع صحابتة ذات مرة وسالهم ٠

ـ من يقرض الله ؟

فعجبوا ودهش أبو الدحداح صاحبه وهل ثمة حاجة لله حتى يستقرض من عباده الفقراء اليه ٠

وقرأ النبى « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون (البقرة ٢٤٥) » ٠

وكان لأبى الدحداح بستانان احدهما فى دانى المدينة والآخر فى عاليها وكان بستان العالية اكثر شجرا وأوفى ثمرا فقال يارسول الله ٠

ـ لقد أقرضت الله بستان العالية ٠

فقال الرسول بورك فيك ياأبا الدحداح ٠

وضرب أبو الدحداح المثل الأعلى للمؤمن ، حين أسرع الى بستان العالية وكانت فيه زوجته وابناه فألقى عنقودا من العنب كان فى يد أبنه وفمه ، فاختطفه منه قائلا لقد أصبح لله ورسوله فما يحق لنا أن نأكل منه ، وينقل منه أسرته الى بستان الدانية وتسأل زوجته عن سر هذه التصرفات فيجيبها الرجل بما حدث فتقول ربحت تجارتك يا أبا الدحداح ربحت تجارتك يا أبا الدحداح

فالقرض لله ولكن فى الحقيقة ما كان لله فهو يصل الى عباده فهو يستقرض لهم ليدفع حاجة المحتاج ويفرج كرب المكـروب ويستقرض منهم ليضاعف لهم المثوبة والجزاء ٠

فالقرض لله من المجتمع والى المجتمع يعود ٠

ومن الايمان بالله ـ أساس المجتمع ـ تسمو نفس الفرد فى اقراض الله والنفقة فى سبيل الله ، والصدقة لعيال الله عن كل غرض دنىء من المباهاة والرياء ومعايرة المتصدق لـه والمحسن اليه ٠

فالمن والرياء يفسدان الزكاة والقرض والاحسان ولقد عـد النبى من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لاظل الا ظلـه رجلا « تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالـه ما انفقت يمينه » « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم ٠ يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله

كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير • » (البقرة ٣٦٣ ــ ٣٦٥)

وان المؤمن الذى يستشعر فى قلبه مسئولية هذا الايمان ليجد من نفسه الغضاضة كل الغضاضة من أن يتقرب الى الله بشيء خبيث ان وصل اليه هذا الخبيث بأى حال فالتصدق بمال حرام أو مشكوك فيه لا يربو عند الله •

انما يتصدق المؤمن بما يحب ويستحسن من المال فلا يكون كالذين وصفهم القرآن بأنهم « يجعلون لله ما يكرهون » قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون (البقرة ٢٦٧) » •

فالله طيب لا يقبل الا الطيب ولا يحب من عبده أن يتوجه اليه الا بالطيب ويكره منه أن يكتسب رزقه من طريق غير طيب •

فالطيبات من الرزق ما أحل الله
والطريق القويمة للرزق ما شرع الله

وكم نهى القرآن الفرد عن الحرام وعن الكسب الغير مشروع « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون (المائدة ٨٨) » •

ولقد يغرى الشيطان بعض الناس ويزين لهم الكسب الحرام موهما أنـــه يزيد الثروة ويكثر من المـــال ولكن الفرد حينما يقرأ بقلبه وجوارحه « يا أيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين (البقرة ١٦٨) » سرعان ما يرعوى ويرى الخير له فى الحلال المشروع ولو قــل لأن « كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به » كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام ٠

هذا ، ولعلنا نذكر ما أباح القرآن من الطيبات ومتع الحيـــاة للفرد مما يؤهله للتوسط بين الدنيا والدين وما كل هذه الأوامر والنواهى والوسائل فى اعداد الفرد الاجتماعى ماديا وروحيا الا خطوات راسخة فى سبيل بناء أساس قوى لمجتمع مثـــالى لامكان فيه لانتهازى أو محتكر أو وصولى أو مستغل ٠

الباب الثالث

مع الاسرة

الباب الثالث

مع الأسرة

فى تكوين الفرد حدد القرآن علاقته بنفسه وبالحياة ، ثم نراه بعد ذلك كما نرى فيما يلى يخرج بهذا الفرد ليحدد علاقته بأفراد أسرته ، ليخرج به مرة أخرى الى المجتمع الوسيع •

واذا كنا قد رأينا حكمة القرآن بوضوح فى مجال تكوين الفرد فان هذه الحكمة ستتجلى بشكل أوضح فى مجال الأسرة حيث تتعدد مشاكلها فى العصر الحاضر وحيث تتعدد مناحى العناية بها فى القرآن الكريم وفى حدود النطاق الروحى والمادى •

علاقة الفرد بزوجته

واذا ما تحدثنا عن علاقة الانسان بأفراد أسرته فلأول وهلة تعرض على الذهن علاقة الفرد بالزوجة التى وصفها القرآن بأنها « الصاحب بالجنب [1] » تلك التى لا تكاد تفارق الانسان وتكاد تكون ظله فى هذه الحياة •

ولقد تحدث القرآن عن الزواج لا كعلاقة تجارية أو منفعية وانما كميثاق وعهد يجب احترامه فيقول الله تعالى فى معرض التحذير من أخذ شىء من مهور النساء « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا [2] » •

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦ • (٢) سورة النساء الآية ٢١ •

والزوجية فى نظر القرآن ليست رقا ولا عبودية ولا استخداما وانما علاقة محبة وشركة وتعاون ٠٠ علاقة سامية بل من أسمى أنواع العلاقات وأجدرها بالاجلال ٠

ولقد رفع القرآن مقام الزوجة الى ما لم تحلم به المرأة الغربية التي يدعون لها الحضارة والرقى وما كان لها مثل ما للمرأة المسلمة من منح وحقوق فعندما يتحدث القرآن عن الزوجة فانما يتحدث عنها كأنفس شىء فى حياة الفرد ووجوده « ومن آيته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا [١] » على قراءة فتح الفاء ، أو هى من نفس الانسان وكيانه على قراءة ضم الفاء ٠

والزوجة فى نظر القرآن سكن الانسان ومستروحه الذى يسكن اليه ويستريح حين يأوى اليها فيجد عندها الراحة والروح عندما يجهده الجد والكفاح فى هذه الحياة « لتسكنوا اليها [٢] » ٠

وما دامت بهذه المثابة فينبغى أن تكون العلاقة بين الزوجين قائمة على حب ٠٠ وود ٠٠ وعلى تعاطف قلبين ٠٠ سكب روح ٠٠ « وجعل بينكم مودة ورحمة [٣] » ٠

وجميل حقا أن نرى القرآن يوحد بين الزوجين هذه الوحدة القوية التى تشعر بها الآية الكريمة « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن [٤] » على معنى الملابسة والمخالطة الذى جاء به صاحب الكشاف أو أن يسوى بينهما تلك المساواة الجميلة القوية التى

---

(١) سورة الروم الآية ٢١ ٠
(٢) سورة الروم الآية ٢١ ٠
(٣) سورة الروم الآية ٢١ ٠
(٤) سورة البقرة الآية ١٨٧ ٠

يمليها المعروف من العادات والتقاليد « ولهن مثل الـــذى عليهن بالمعروف [1] » ٠

وكما يجب عليـــه احترام رأيها وتقـــدير شخصيتها وحسن معاشرتها حتى فى حال الكراهية والنفور « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا [2] » فينبغى عليها هى الاخرى أن تقابل احترامه باحترام أكثر وتقديره بتقدير أعظم « واذا حييتم بتحيـــة فحيوا بأحسن منها أو ردوها [3] » « لو أمرت مخلوقا أن يسجد لمخلوق لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها » ٠

ولقد كان القرآن صريحا حينما عالج مسائل الحياة الزوجية ومشاكلها بواقعية وصراحة تعلو على واقعية وصراحة كل مدعى التوجيه والاصلاح ٠

وهكذا يسمو القرآن برباط الزواج وبمكانة الزوجة ويعالج أمور الأسرة بعيدا عن مستوى معقدى مشاكل المجتمع باســم التوجيه والاصلاح ٠

ولولا مخافة التطويل وضيق المقام لجلوت عن حكمة القرآن فى كل ما يتصل بحياة الزوجين فقط حسبى تلك المسائل الكبرى التى أصبحت حديث المتفرنجين الذين حسبوا ـ لقصر نظرهم ـ قصورا من القرآن الكريم وأعنى بتلك المسائل : مسألة الدرجـــة والقوامـــة ، والتعدد ، والطـــلاق ووسائل الحفاظ على حيـــاة الزوجين ٠

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٨ ٠

(٢) سورة النساء الآية ١٩ ٠ (٣) النساء ٨٦ ٠

القوامة

لا بد لكل مجتمع مهما صغر من رئيس يدير شئونه ويرعى مصالحه ، والأسرة هى المجتمع الحى الصغير الذى يتكون منه المجتمع الكبير فهى فى أشد الحاجة الى الرئيس الراشد الـــذى يصرف أموره بحكمة ويقوده الى شاطىء الامن ومرفأ السلام حتى ينجح المجتمع القرآنى كله ويسود على شتى المجتمعات ٠

ولـــئن كان القـــرآن قد سوى بـــين الزوجين فـــى الحقوق والواجبات ما دلتنا عليه الآية الكريمة « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف [1] » فلا ينبغى أن نفهم اطلاقا من هذه المساواة ٠٠ المساواة المطلقة التى تتعدى حـــدود القدرة والامكانيات والا كانت مساواة ظالمة متهورة تتضرر بها المـــرأة قبل الرجل فى كل شىء ٠

انما كانت مساواة القرآن بين الزوجين فى حدود طاقة كل منهما وامكانياته الجسدية والروحية ولقد كانت مساواة عاقلـــة لا تتسم بغير العدل والانصاف ٠

وفى سبيل تحقيق هـــذه المســـاواة ومن صميمها كـــانت الدرجة التى فضـــل الله بها الرجال عـــلى النســـاء فى قولـــه الحكيم « وللرجال عليهن درجـــة [2] » لانها درجة منحها الله للزوج عـــلى حسب طاقته التى تفوق طاقـــة النساء ٠ فلا غرابة حينئذ ان رأينا القرآن بمقتضى هذه الدرجة التى منحها للرجل على المرأة لا غرابة ان أعطى القوامة لعناية البيت ورعاية شئونه

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٨ ٠ (٢) سورة البقرة الآية ٢٢٨ ٠

للرجل بحكم الدرجة التى يتفوق بها على المرأة وبما قد يفضل بها بعض الرجـال على بعض النســاء وبما ينفق عليها مــن مال ومستلزمات ٠

لقد كفل القرآن حق الزوجة فى الانفاق من مـال الـزوج وأوجب احترام ملكيتها وعدم التصرف فى مالها بما يغضبها أو يظلمها « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احـداهن قنطارا فـلا تأخذوا منـه شيئا ٠٠ أتأخذونه بهتـانا واثمـا مبينـا [١] » ٠

والخلاصة أن القرآن وضع كل أعباء الحياة المنزلية بما فيها نفقة المرأة وأولادها على الرجل قبل الزواج من مهر ومن مقـدم صداق وأثناء الزواج وبعد الزواج « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتيضيقوا عليهن وان كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن [٢] » ٠

حتى النفقـة عليهـا أيام الطـلاق الرجعى وأيام العـدة وحتى أجرة الرضاع تحملها الرجل فى شريعة القرآن ولو كان بعد انفصام الحياة الزوجية « فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وان تعاسرتم فسترضع له أخرى [٣] » ٠

واذا كان القرآن قد ألقى على كاهل الرجل كل نفقات الحياة الزوجية فان الحكمة أن يعطى القوامة ٠

---

(١) سورة النساء الآية ٢٠ (٢) ــ (٣) الطـلاق ٦

وفى رأيى أنه اذا انعدمت الدرجة عند الرجل بأن مرض مرضا يمنعه من مزاولة القوامة فى البيت أو انعدم دخله بحيث أصبح لا يمكنه القيام بمطالب المنزل والوفاء بحاجاته بينما الزوجة تتمتع بصحة أقوى او مال أوفر فان القرآن لا يمنع حينئذ أن تتولى الزوجة هذه القوامة « فرب رجل عقله أخلى من البادية وامرأة وصلت أيامها بالليالى فى مزاولة العلم » حتى أصبحت من كبار القادة والمفكرين ٠

هذه هى روح المساواة وجوهرها التى لمسها القرآن بحكمة البالغة ٠٠ مساواة فى حدود القدرة والطاقة بها منح الرجل الدرجة وبها أعطى القوامة ومقاليد الامور ٠

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ٠

وبجانب هذه القوامة فان القرآن أوجب التعاون بين الزوجين فى شتى شئون الحياة « وائتمروا بينكم بمعروف » ٠

على ألا يطغى التعاون كثيرا أو ينحرف فيؤثر عكسيا على توازن البيت حتى يؤدى وظيفته الرئيسية فى مجتمع القرآن ٠

كما لا ينبغى أن يفهم أن من نظرية التعاون الزوجى فى القرآن أن تترك المرأة وظيفتها الأساسية فى الحياة فى رعاية الطفولة وحمايتها الى مجال العمل الخارجى المادى بحجة التعاون معا على أعباء الحياة ٠

فان خير صورة للتعاون يهدف اليها القرآن هى التعاون فى خلق الجيل وتربية الطفل وتهذيبه باعتباره النبتة التى تنمى

شجرة الأمة وتمثلها ، وأشد حاجة النبتة الى يد تتعهدها بالسقى والارعاء وخير يد تؤدى هذه الوظيفة هى يد الأمومة ، وغير الأمومة لا يمكن أن تؤدى هذا الدور كما ينبغى أن يؤدى فالأم وحدها للطفل وليست الخادم والوظيفة ٠

ولقد أصا بالشاعر حافظ ابراهيم كبد الحقيقة حين قال ٠

الأم مدرسة اذا أعددتها

أعددت شعبا طيب الأعراق

فالأم مدرسة الشعب الأولى فهى غذاؤه وهى مستقبلـــــه وحاضره وهى ماضيه ٠

تعدد الزوجات

وعندما نصل فى بحثنا الى هذا الحد فانما نكون قد وصلنـــا الى مفترق طرق ونقطة تشـــــعبت عنـــدها الآراء واختلفـــت الاتجاهات ٠

ويبدو أن الانسانية كلما صعدت درجات فى سلم الحضارة كلما ابتعدت عن الأديان جميعا مندفعة وراء غرورها الكاذب الى متاهات مظلمة واسعة تتلمس فيها الطريـــــق نحو النـــور دون جدوى ٠

ذلك أن مدعى الحضارة وقيادة الفكر والأصلاح الذين رموا القرآن دينه جهلا بأنه دين الزوجات الأربع ورفعوا من شـــأن الحضارة الغربية التى قيدت الزوج بواحدة واعلوا من شـــأن المسيحية ــ جهلا وسطحية ــ تفردها بذلك عن التوراة والقرآن كما يقولون ٠

مع أن القرآن هو التشريع الوحيد الذى بذ الكتب والأديان وخاصة المسيحية فى هذا الموضوع بالذات وقيد حرية التعدد ولم يقيدها قبله دين من الأديان ولعلنا بهذا البحث عن هذا الموضوع نكشف عن تلك الحكمة ٠

وقبل أن نخوض معا فى التفاصيل لا بد أن نجـــلو نقطتين أعتبرهما رئيسيتين فى هذا المجال وهما :

١ ــ موقف الأديان الشـــــهيرة ــ اليهوديـــة والمسيحيـــة والاسلام ــ من تعدد الزوجات ٠

٢ ــ العدل المقصود فى قوله تعالى ((فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة [١])) فى معرض الحديث عن تعدد الزوجات ٠

موقف الأديان الثلاثة من الموضوع ٠٠

أ ــ اليهودية ٠

كانت التوراة مصدرا للتشريع فى اليهودية والنصرانية معا وأباحت التعدد اباحة مطلقة ٠

ب ــ المسيحية ٠٠

ولى هنا وقفة تضطرنى اليها ظروف الحديث عن الدين الذى لا يمارس أنصاره التعدد ويريدون حمل دعوى الفردية فى الزواج فى انحاء العالم كله مبالغين فى تحسينه وشن الحملات على خلافه ٠

ومن الغريب أن يبتعد المسيحيون كل هذا البعد الشاسع عن تعاليم دينهم اذ لم يأت فيها نص واحد عن تحريم تعدد الزوجات ٠

نعم لم يأت فى الانجيل نص واحد يحرم التعدد بل ترك الأمر على عهد المسيح وفى دينه على ما كان المعمول به من قبل فى تعاليم التوراة من اباحة التعدد اباحة مطلقة لا تعرف القيود أو الحدود والأدلة على ذلك كثيرة متوافرة منها :

١ ــ أن الانجيل لم يكن كتاب تشريع بل جاء لقوم كانت قوانين الرومان تكفيهم فى ذلك الزمان انما كان كل همه رد الانسانية الى طريق الهداية بعد أن تاهت عنه زمنا فى ظلمات

---

(١) سورة النساء الآية ٣ ٠

المادة ولذلك تراه يحاول استخلاص القيم الروحية كالمحبة والتسامح وغيرهما من الوحل الذى تمرغ فيه بنوا اسرائيل زمنا طال تمرغهم فيه ·

٢ ــ وكذلك لم يكن السيد المسيح مشرعا ككتابه بل كانت رسالته قاصرة على اقرار ما جاء فى التوراة والتبشير بما سيأتى بعده من شريعة الاسلام « واذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد[١] » ·

٣ ــ من المعروف أن السيد المسيح بعث فى بيئة يهودية يمارس أهلها تعدد الزوجات وخاصة الأغنياء منهم ومع هذا لم ينص المسيح على تحريم التعدد ، كل ما فعله أنه عاب على الأغنياء رذائلهم فكيف لا ينص عن التحريم ان كان قد قصد اليه كما يقولون ·

٤ ــ ان « مارتن لوثر » مؤسس المذهب البروتستانتى لم يقل بتحريم التعدد بل كان موقف الرجل قريبا من موقف الاسلام فلقد أثر عنه قوله « ان الرب لم يحرمه وابراهيم نفسه الذى كان مسيحيا كاملا كانت له زوجتان ، حقا أن الرب لم يسمح بمثل هذه الزيجات الا لبعض الرجال فى التوراة وفى ظل ظروف خاصة وأن على المسيحى الذى يريد الاقتداء بهم أن يثبت أن ظروفه مشابهة لهذه الظروف ، دالا أن تعدد الزوجات أفضل يقينا من الطلاق » ·

---

(١) سورة الصف الآية ٦ .

٥ ــ أن بعض الفرق المسيحية أقرت التعدد وممارسته وعارضت تحريمه وحاربته ٠

من هذه الفرق مثلا « الانابيتست » فى ألمانيا فى منتصف القرن السادس عشر وكان أنصار هذه الفرقة يبشرون بالتعدد علانية ويقولون : ان المسيحى الحقيقى يجب أن تكون له زوجات متعددة ٠

ومنها « المورمون » بالولايات المتحدة الأمريكية فى أوائل القرن التاسع عشر كانوا يمارسون التعدد وينظرون اليه باعتباره نظاما الهيا ٠

٦ ــ أن بعض ملوك أوربا فى العصر المتوسط مارسوا تعدد الزوجات ومن هؤلاء شارلمان وفيليب أميرهيس وفردريك جيوم أمير بروسيا فقد كانت لكل منهم زوجتان ٠

٧ ــ وما زال بعض الأعراب المسيحيين من سكان « موءاب » على الضفة الشرقية للبحر الميت يمارسون التعدد فى بعض الأحيان ٠

ومن هذه الأدلة وغيرها يظهر لنا بوضوح أن تحريم التعدد لم يحدث الا فى القرون الوسطى ومن جانب الكنيسة الكاثوليكية بالذات ويبدو أنها تأثرت بالتقاليد اليونانية والرومانية فى اتباع مبدأ وحدة الزوجة اذ أن الكاثوليكية وحدها هى التى كانت ترى أن الغاية من التعدد اشباع الرغبة الجنسية لدى الرجل وكانت تنظر الى الشهوة الجنسية نظرة تقزز واشمئزاز وتطالب أتباعها

بقمعها حتى بين الزوجين •

وقد أدى الى انتشار فكرة وحدة الزوجة وخاصة بين الأوربيين تلك التقاليد الموروثة من اليونان والرومان مساندة الكاثوليكيين لهذه التقاليد •

وبعد ••

فهذا هو موقف المسيحية من تعدد الزوجات موقف الاباحة والسماح ولكن فعلها الكاثوليك امعانا فى الروحية الجامدة والرهبنة المتزمتة وانطلت على عقول الأوربيين وغير الباحثين من الشرقيين •

وموقف الاسلام :

خاتمة الرسالات ، وممثلة قمة التطور البشرى والعامة الصالحة لكل زمان ومكان ويتجلى فيها اعجاز الكتاب الذى تضمنت نصوصه كل كبيرة وصغيرة فى المجتمع وعالج النواحى الاجتماعية كلها بروح مرنة تصلح كل الاوساط فى شتى الأمكنة والجهات تلك رسالة الاسلام •• وقفت من التعدد موقفا انسانيا يلائم الواقع فى كل مجتمع •

وقد يتلخص موقف القرآن من التعدد فى نقطتين •

أ ــ لم يبيح القرآن شيئا اذا ما ترتب عليه الوقوع فى الحرج أو الضرر « وما جعل عليكم فى الدين من حرج [1] » •

وفى أصل من أصول الاسلام أن الوسيلة تعطى حكم الغاية

---

(١) سورة الحج الآية ٧٨ •

وفى عصرنا مثلا اذا تأكدنا تأكدا جازما أن التعدد يؤدى الى الخصام والتشاحن فى البيت والفرقة بين أولاد الرجل الواحد من زوجتيه المختلفتين المتنافرتين أو يؤدى الى قطع الأرحام التى أمر الله بها أن توصل أو يؤدى الى تمزق وحدة الأسرة الواحدة مما حرم الله فاذا كانت هذه الاشياء محرمة كفاية فان التعدد اذا ما تأكدنا تأديه اليها فانه يأخذ حكمها ٠

وقد قال بهذا الرأى كثير من الباحثين قديما كالمعتزلة وحديثا كأستاذنا المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ٠

ب ـ أما فى حالات الضرورة القصوى التى تؤدى فيها وحدة الزوجة الى أضرار تلحق الفرد أو المجتمع أو كان التعدد لا يؤدى الى شىء من الضرر فان القرآن يبيح التعدد حينئذ كعلاج لهذه الضرورة « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وحتى فى هذه الحالة لا يبيحه مطلقا بل يقيده بعدد محدود وشروط صعبة فيقيده بأربع زوجات فقط كحد أقصى لا يجوز تجاوزه « فانكحوا ما طاب لكم من النساء : مثنى ، وثلاث ، ورباع [1] » ويشترط العدل بالذات فى كل ما يمكن العدل فيه حتى أنه ظن من نفسه عدم القدرة على العدل بينهن أو تحققه لا يباح له الزواج بأكثر من واحدة « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة (٢) » ٠

على أن الحكمة تتجلى بصورة أكثر وضوحا عندما نفهم معنى العدل المقصود فى الآيتين « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » و « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم [3] » ٠

---

(١) سورة النساء الآية ٣ ٠ (٢) سورة النساء الآية ٣ ٠
(٣) سورة النساء الآية ١٢٩ ٠

معنى العدل :

وقبل أن أعرض هذه النقطة أرى تقديمها بتوطئـــة موجزة وهى أن العدل بين الزوجات أمر مطلوب بل محتم القيام به مـــن الزوج وعليه أن يتوخاه اذا ما اضطرته ظروفه الى التعدد حتـــى قال الرسول عليه الصلاة والسلام « من كان له امرأتان فمـــال لاحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل .

وهذا العدل نوعان :

١ ــ عدل فى الأمور المادية وهـــو عبارة عن التســـوية بين الزوجات فى الملبس والمسكن والنفقـــة والمعاشرة الجنسيـــة والتودد والملاطفة وغيرها من كل ما تعتبره الزوجة من مظاهـــر السعادة الزوجية .

٢ ــ عدل في الأمور المعنوية وهو عبارة عن التسوية بينهن فى الحب والميل العاطفى .

أما العدل المقصود فى قوله تعـــالى : « ولن تســـتطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » فقد ذكر المفسرون أنها تعنى العدل بنوعه الثانى ــ فى الأمور المعنوية » لأن الحب قـــدر لا دخل للانسان فيه ، وأوضحوا هذا بقوله عليه السلام « اللهم أن هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك » .

ومع ذلك فان السلوك الانسانى قد يخضع للعاطفة فى غالب الأحيان مهما تحفظ الانسان فى كبت هذه العاطفة ولا بد للرجل الذى يؤثر احدى زوجتيه على الأخرى فى قلبه أن تظهر عـــلى تصرفاته أثر المحبة أو الكراهية الأمر الذى كان يحذره الرسول

ويخشاه وطلب الى الله من أجله أن يعفو عما قد يبدر منه ٠

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الكامل فى العدل بين زوجاته ورغم هذا فقد استأذن أن يمكث أيام مرضه فى بيت عائشة بالذات ولم يكن هذا مجاوزة للعدل طبعا لأنهن اذن لـه راضين انما كان دليلا على مدى ما كان النبى يفضل عائشة عن بقية الزوجات فى قلبه ٠

على أن هناك رأيا للاستاذ عبد العزيز العلى يجدر بنا الوقوف عنده بعض الشىء ٠

فلقد فسر الأستاذ العدل فى الآية بالعدل الاجتماعى وعليه قسم حالات المجتمع الى ثلاث وباعتبارها انقسمت حالات التعدد أيضا الى ثلاث ٠

الحالة الأولى :

وهى الحالة التى يتكافأ فيها عدد النساء مع عدد الرجال وفيها يقرر القرآن خطر التعدد فيجعل لكل رجل زوجة واحدة اقتـداء بأبيهم الأول آدم عليه السلام حيث اختار الله له زوجة واحدة فى وقت كان العالم فيه أحوج ما يكون الى تعدد الزوجات والى ذلك يشير القرآن فى قوله تعالى « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبـث منهما رجـالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا[1] » ٠

(١) سورة النساء الآية ١ ٠

الحالة الثانية :

وهى الحالة التى يزيد فيها عدد النساء على عدد الرجال كما يحدث عقب الأوبئة والحروب التى تجتاح العدد الكثير من الرجال كحالة المانيا الآن مثلا .

وتشبه هذه الحالة ما قد يحدث من الظروف التى تضطر الفرد الى اتخاذ زوجة أخرى كأن تمرض الزوجة الأولى مرضا عضالا أو أن تكون عقيمة أو لديها مانع صحى أو نفسى يمنع من ممارسة المعاشرة الزوجية أو غير هذا من العوامل التى تسبب متاعب نفسية أو صحية للرجال .

وفى هذه الحالة ونظائرها من الضروريات يبيح القرآن التعدد كعلاج يحتمه العدل الاجتماعى ولكنها اباحة مقيدة بالعدد المذكور والشروط المذكورة « وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة[1] » .

وقد لمح القرآن بقوله « فى اليتامى » الى زيادة عدد النساء على عدد الرجال فى المجتمع الذى تكثر فيه اليتامى حيث تكثر امهاتهم الأرامل وهنا تقتضى العدالة الاجتماعية ضرورة العدل مع اليتيم واسعاده واباحة التعدد حيث لا توجد هذه الكثرة من الأرامل اللائى يعانين غصة الحياة ، وحيث لا توجد أيضا هذه

---

(١) سورة النساء الآية ٣٠ .

الكثرة من النساء اللائى لا عائـل لهن وحتى لا يجنحن الـى الانحراف واكتساب أرزاقهن عن طرق حرم الله منها اكتساب الأرزاق وحتى لا يجنح الرجال فى حالات اضطرارهم الـى اتخاذ زوجة أخرى ــ من غير أن تحل لهم الشريعة ذلك ــ الى مصادقة الغانيات أو مخادنة الشريفات فتميع قيم المجتمع وتختلط فيه الأنساب ويسود الانحراف كما يحدث الآن فى المجتمعات الأوربية المهزوزة خلقيا واجتماعيا ٠

الحالة الثالثة ٠

وهى حالة ما اذا قل عدد النساء عن عدد الرجال ٠

وفى هذه الحالة كان من المحتم أن يقع المشرع العادى فـى ورطة اذا ما توخى مبدأ العدالة الاجتماعية فى تعدد الزوجات أو عدمه ٠

فمن الواضح مثلا أن تحتم نظرية العدالة هذه حينئذ زواج رجلين لكل امرأة واحدة فى القبيلة التى يوجد فيها عشرة نساء وخمسة رجال ولكنها هنا لفتة من لفتات الحكمة فى القرآن الكريم حيث جنب المجتمع أخطار هذه الورطة بقاعدة « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » التىتتعاون هى والقاعدة النبويـة « لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام » فى ايجاد مجتمع فاضل يشق طريقه فى الحياة بلا تورط وبلا أخطار ولا يخفى ما فى تزويج المرأة بأكثر

من رجل من الفوضى الخلقية ، واختـــلاط الانساب واهــدار المبادىء والمثل •

وفى هذه الحالة لا يصح التعدد لمجرد خوف عدم العدالــة الاجتماعية أو ظنها « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » •

ولقد ناقش الأستاذ رأى القائلين بأن المقصود بالعــدل فى الآية •• العدل بين الزوجات بردود أهمها :

١ ــ أنه لو كان الأمر كذلك لقلنا لكل صاحب عمــل يتخوف عدم العدل بين العمال ــ لقلنا له أكتف بواحد فقط وهذا ليس من المنطق •

٢ ــ ان القرآن قرر عدم استطاعــة العدل بين الزوجــات وظاهر الآية هو العدل كله فلا يعدل عنه ومهما يكن رأى الاستاذ فهو جدير بالدراسة •

□

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نســتخلص ما يلى فى تعــدد الزوجات •

١ ــ أن اليهودية والمسيحية اجتمعتا معا على اباحة تعــدد الزوجات وأن ما التصق بالمسيحية من وحدة الزوجة لم يقم معه نص من الانجيل أو عمل المسيح انما كــان موروثا من التقاليد اليونانية والرومانية وانتشر فى أوروبا ودخل فــى المسيحيــة بمؤازرة الكاثوليكية التى تنفر من الشهوة الجنسية وتعتبرهــا الغاية وحدها من تعدد الزوجات •

٢ ــ أن القرآن وقف تجاه هذا الموضوع موقفا وسطا كشأنه

ازاء كل نواحى الحياة فحظر التعدد كوسيلة تؤدى الى غايــــة محرمة فاذا لم تؤد الى غاية محرمة كوقوع الفرقة والخصام فى الأسرة أو قطع الرحم والتفكك • فان القرآن يبيحه حينئذ •

٣ ــ وفى اباحة القرآن للتعدد لا يبيحه مطلقا كــما فعلت اليهودية والمسيحية من قبل بل يقيده بأربــع زوجــات ويشترط العدل بينهن •

٤ ــ وعلى هذا يظهر لنا أن القرآن لا يمانع التشريعات التى تنص على أنه للزوجة أن تشترط على زوجها الا يتزوج بأخرى ما دامت فى عصمته كما يجوز للقاضى أن يبحث حالة كل زوج يرغب فى التعدد وعليه يصرح له أو لايصرح بزواج جديــد لأن هذا تنظيم لشىء مباح وتنظيم المباح مباح •

٥ ــ أن القرآن حــين يبيح التعدد أو يحرمــه انما يتحرى مصلحة الأسرة أو لاومصلحة المجتمع ثانيا وتحقيق العــدالــة الاجتماعية من وراء كلتا المصلحتين •

٦ ــ ليس معنى اساءة بعض المسلمين فهم القرآن وموقفه من التعدد واساءة استعمالهم له أن القرآن يغمط المرأة حقها بل يضع للمجتمع ما يقوده الى السلامة والنجاح وما على المــرأة والمنادين بحقوقها الا أن يقرأوا القرآن من جديد على أن يتأملوا ما فيه من حكمة ورعاية للمصلحة •

وسائل المحافظة على الحياة الزوجية

مقدمة موجزة ..

بعدما أوصى القرآن الانسان بحسن معاشرة زوجته « وعاشروهن بالمعروف [1] » حتى وان كان يكرهها « فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا [2] » وأوصى المرأة بطاعة الرجل واحترامه حتى يقول الرسول « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها » وأشعر الرجل بأن للمرأة عليه حق تقدير رأيها واحترامه فى شئون البيت والأسرة اذ هى مساوية له وان فضلها بالقوامة فلأن عقله أقوى وعاطفته أضبط والنفقة على البيت من جانبه وبعدما راعى القرآن مصلحة المرأة ثم مصلحة المجتمع العليا من وراء تعدد الزوجات تعرض بعد كل هذا الى ما قد يعترض الحياة الزوجية من مشكلات قد تقضى فيها على الوفاق والوئام بين الزوجين وقدم وسائل العلاج للحفاظ على هذه الحياة ..

الوسائل :

قسم القرآن النساء أولا الى نوعين :

١ ـ نوع تكون منه الزوجة الصالحة ولا سبيل عليها ولا عقاب ، بل ان مثل هذه الزوجة تحظى برضى الله والمجتمع . ولقد وصف القرآن الزوجات من هذا النوع بأنهن الهادئات الطباع

---

(١) سورة النساء الآية ١٩ . (٢) سورة النساء الآية ١٩ .

الكاتمات أسرار الزوجية « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله[1] » . ووصفهن النبى بقول معناه « خير النســاء من اذا نظرت اليها سرتك واذا أمرتها أطاعتك » ولها عند اللــه المثوبة وعند زوجها لين المعاملة وحسن المعاشرة « ايما امــرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » .

٢ ــ نوع تكون منه الزوجة الغير صالحة (الناشز) وقد وضع القرآن لعلاج هذا النوع عدة خطوات كل خطوة منها مترتبة على الأخرى بحيث لا يلجأ اليها الا بعد اليأس من سابقتها .

الخطوة الأولى : الوعظ بما يناسب حالة النشوز والزوجــة وذلك أمر ترك القرآن تحديده للباقة الشخص وحالة النزاع وهذا منه نوع من الحكمة والمرونة والملاءمة لكل زمان ومكان .

الخطوة الثانية : الهجر فى المضجع وهذا العلاج بالذات يدل على معرفة كاملة وفهم تام لنفسية الرجل والأنثى التى يهمها كل الاهتمام أن ترى زوجها معجبا بجمالها فاذا انعدم هذا وخــرج الرجل من دائرة اغراء أنثاه كانت الطعنة فى الصميم وقد تحدث المفسرون وأكثروا فى : هل المراد الهجر فــى نفس الفراش أم فى الحجرة أم فى البيت ولا داعى لذكر كل هذه التحقيقات فى مثل هذه العجالة انما يكفينا على ما أعتقد أن يترك ذلك هو الآخر للباقة الزوج فيكيف الهجر على حسب النزاع والنشوز على أن الهجر فى نفس الفراش ــ كما يقول بعض المفسرين ــ أشد وقعا

---

(١) سورة النساء الآية ٣٤ .

واقسى بكثير ولعله هو المراد فى علاج زوجة لم يجد معها وعظ لين وعتاب رقيق ٠

الخطوة الثالثة : الضرب ، وليس الضرب المراد الضرب المؤلم المشين للكرامة الانسانية اذ أن ذلك أمر حذر منه القرآن ونهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام منذ ظهر الاسلام « أيضرب أحدكم امرأته ثم يضاجعها فى آخر اليوم » ٠

انما الضرب الذى يقصد اليه القرآن هو الضرب الغير مؤلم الغير مشين وبحيث يحصل به التأديب وكسر النشوز واعادة الحياة والوئام ٠

فان عاد السلام ورجعت الزوجة عن العصيان فبها والا كان هناك علاج رابع فى :

الخطوة الرابعة : التحكيم

وقد يجدى تحكيم رجلين رجل من أهله ورجل من أهلها من ذوى الخبرة والاضطلاع فى الشئون الأسرية على أن ينويا معا الصلح والتوفيق فان عزما عليه وفق الله مسعاهما وكلله بالنجاح ٠

وهنا لفتة من لفتات الحكمة الآلهية فى القرآن تبدو فى اشتراطه كون الحكمين من نفس الأسرة التى ينتمى اليها الزوجين فان لم يكونا من أسرة واحدة أختير حكم من أسرته وحكم من أسرتها وذلك رغبة منه فى حسم النزاع العائلى فى نطاق محدود داخل الأسرة والحيلولة بينه وبين الانتشار حتى لا تشيع الفاحشة فى مجتمع القرآن ، وحتى لا يجرح الزوجان أو أسرتهما فى كرامتهما وسمعتهما بين الناس ٠

« والتى تخــافون نشوزهن ، فعظــوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ان الله كان عليا كبيرا ، وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ، ان الله كان عليما خبيرا » (١) ٠

فان فشلت الخطوات الأربع فى اعادة الحياة فى البيت على ما ينبغى أن تكون فللزوج أن يرفع أمرها الى القضــاء يدعوها بواسطته الى الطــاعة والعودة الى بيت الزوجيـــة أو « بيت الطاعة » كما يتندرون على أن ينــاسب بيت الطــاعة هذا حالة الزوجين ويراعى فيه أمور النفقة والكسوة بالمعروف بلا تعسف أو غطرسة وبلا كيد أو محاولة للاثارة من جانب الزوج لأن بيت الطاعة لم يشرعه الله ليكون « أثرا من مخلفات الاقطاع أيام كان الرق مباحا لدى الجميع » كما تقول الدكتورة بنت الشاطىء أو ليكون « أمرا يتنافى مع أبسط قواعد الانسانية » انما شرعه الله لانهاء الخلافات الزوجية الناشبة من نشوز المرأة وللقضاء على هذا النشوز واعادة الحياة بأفراحها وسعادتها الى البيت

وأمام المرأة ازاء بيت الطاعة طريقان :

١ ــ أما أن ترجع عن نشوزها وتعود طائعة الى عشها الأول وفيه تأخذ كافة ما لها من حقوق وما عليها من واجبات فان قامت بواجباتها ومنعها الزوج حقا من حقوقها بعذر أو بغير عذر فلها أن تطلب منه الطــلاق ، فان امتنع طلق عنه القــاضي بلا ضرر أو ضرار ٠

---

(١) سورة النساء الآية ٣٤ ، ٣٥

٢ ـ واما أن تستمرىء الخلاف وتظل على النشوز راكبة رأسها كيدا وعنادا وترفض المثول الى بيت الزوجية فللزوج أن يمنعها نفقتها فان رفعت هى الأخرى أمرا الى القاضي تطلب هذه النفقة المحتبسة وأداها الزوج فان القضاء حينئذ سيعيدها الى بيت الطاعة كارهة وبقوة الشرطة ، لأن الطاعة حق للزوج على زوجته ازاء ما يتحمله نحوها من نفقة وأعباء وليس من المنطق أن تأخذ حقها وتعرض عن واجبها أو ليس من الذوق البديهى أن تأخذ من زوجها النفقة ثم تنشز عنه وتتأبى عليه ٠

ولقد اثارت مسألة القوة هذه السيدة أمينة السعيد فكتبت تهاجم بيت الطاعة فى الاسلام بلا رحمة وبلا أناة ٠ قالت فى خلال كلام طويل :

« ٠٠٠ والالتجاء الى البوليس لاجبار المرأة التى لا تريد معاشرة زوجها على معاشرته أمر لا يقره دين ولا عرف ولا ذوق »

ونحن نسلم بما تقوله السيدة أمينة من ان اللجوء الى البوليس لارغام امرأة على العيش مع من تكره أمر لا يقره ذوق فلا يقره الاسلام ٠ انما يقرر الاسلام اللجوء الى البوليس حين تريد أن تأخذ النفقة من الرجل ثم لا تذهب الى بيته فكيف تقرين لها هذا الوضع الذى تستنزف فيه مال الرجل ولا سبيل له عليها ٠ ألا يقرر الذوق أن تطيعه جزاء نفقته ، فكل حق يقابله واجب ، وهل تبيحين لانسان أيا كان أن يطالب بكل حقوقه ويأخذها ثم ينام عن واجباته ويهملها ٠ وقد جعل الاسلام للزوجة حق النفقة مقابل واجب الطاعة ٠

هذا الاسلام الذى تحسبينه خطأ ـــ يا سيدة ـــ أنه يكره المرأة على من تكره ، لم تحدث فى تاريخه حادثة واحدة اجبرت فيهـــا امرأة على العيش مع رجل تكرههفهو الذى أوجب أن تستأمر البكر والثيب فى زواجها وأن تزوج المرأة نفسها بغير اذن من وليها اذا رأت أنه يستغلها ولا يعمَل لمستقبلها وهو الذى أباح لها طلب الطلاق اذا منعها الزوج نفقتها وأباح لها طلب الطلاق اذا وقفت الشرطة على بابها لتعيدها الى الطاعة قهرا وبالاكراه دون نفقة يدفعها زوجها ولكنها حين تعتدىوتلح فى طلب النفقة حتى تأخذها ثم ترفض الذهاب الى بيتها والعودة الى زوجها فلا يقرها على ذلك دين ولا عرف ولا ذوق ٠

ولست أدرى كيف تتسرع السيدة الدكتورة بنت الشاطىء مع ما نظنه من منزلتها وفضلها ، كيف تتسرع فتجازف بالقول بأن بيت الطاعة ليس الا أثرا من مخلفات الاقطـــاع أيام كان الرق مباحا لدى الجميع ٠

والى المسيحية والحضارة الغربية التى جرفت الدكتـــورة وزميلاتها فى تيارها البراق على ما أظن ، فانطلقت تهاجم بهذا العنف بيت الطاعة فى الاسلام وتصفه بأنه اقطاع فى اقطـــاع ، وبقايا اقطاع ٠

ولن أغوص فى الأناجيل الكثيرة المتضاربة لاستخلص موقف المسيحية من بيت الطاعة وقد أنكروه على الاسلام ٠

حسبى هذه النشرة من جريدة المساء الصادرة يوم الثـــلاثاء

٥ من يناير ١٩٦٠ وفيها حكم مستأنف بعودة زوجة مسيحية الى بيت الطاعة ٠

جاء من حيثيات الحكم ما نصه : « ان تعاليم الشريعة المسيحية التى نادى بها السيد المسيح ، وأكدها بولس الرسول قد أوصت الزوجة بأن تطيع زوجها فتجعل منه رأسها المفكر وعقلها المدبر ، وأن تخضع له ، وأن تبذل له من الود ما لا يجوز أن تمنع نفسها منه » ٠

وبعد أن أتت المحكمة على كل أسباب الحكم المستأنف قررت الغاء الحكم الابتدائى وادخال الزوجة فى طاعة زوجها ٠

فهل بالله ، يمكن أن يقال بعد هذا ان بيت الطاعة اقطاع مخالف لأبسط قواعد الانسانية وقد توارثته الاديان جميعا دينا بعد دين ؟

وهل يمكن أن يكون الانسان أهدى وأعرف بمصالحه من خالق الانسان ؟

على أننى أرى أنه اذا أسىء استعمال بيت الطاعة من لدن الزوج أو الزوجة واتخذ كل منهما من منصة القضاء مسرحا لكيد الآخر وعناده ، فللزوج أن يلجأ الى تعدد الزوجات باعتباره حلا لمشكلة الخلاف أيسر من حلها بغيره ، فلعل بعد دخول زوجة جديدة الى المنزل أن تحاول كلتاهما اجتذاب الرجل وتوفير أسباب السعادة له ، على ألا يؤدى هذا الحل الى مشكلة جديدة فان فعل فالى سم العلاج ونهاية المطاف ٠٠ الى الطلاق « وإن

يتفرقا يغن الله كلا من سعته [١] » ٠

ولم يشرع الله حلالا أبغض اليه من الطلاق « أبغض الحلال الى الله الطلاق » وقد شرعه لا للحلف به فى الحياة اليومية أو الأسواق : « من حلف فليحلف بالله أو فليصمت » ٠ انما شرعه كما رأينا لفصم حياة زوجية تعطلت فيها أسباب الراحة والوفاق وفشلت فى اصلاحها كل الوسائل والمحاولات ٠

وقد أحاط القرآن الطلاق بسياج من الرهبة جعله كـالدواء المر حين يتعذر غيره كل علاج ومن حكمته أن جعله مفرقا ثلاث مرات متباعدة لعل الزوج يراود نفسه ويرجع عن عزمه حين تهدأ عاصفة الخلاف ، ويعود كل من الزوجين الى العقل والحكمة فى أمر الأولاد والأسرة ومصيرهم المؤلم بعد الطلاق فيرجع عن رأيه ويدخل تجربة أخرى فى استمرار الحياة الزوجية ولعلها هى الأخرى بعد أن تكون قد ذاقت مرارة البعد والهجر والفراق وخيال المستقبل المر أن ترجع عن نشوزها وتعود طائعة الى زوجـها وتسير سفينة الحـياة فى الأسرة من جديد « الطـلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان [٢] » ٠

على أنه اشترط أن يقع الطلاق فى طهر لم يجامعها فيه حتى لا تطول عليها العدة فتتضرر « يا أيها النبى اذا طلقتم النسـاء فطلقوهن لعدتهن [١] » ٠

كما اشترط فى كل ذلك أن يكون الزوج بحالة وعى تامة تكمل

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٠ ٠ (٢) سورة البقرة الآية ٢٢٩ ٠
(٣) سورة الطلاق الآية ١ ٠

فيها مسئوليته كما يكون الطلاق منجزا مقصودا للتفريق ، مرة مرة ، فى طهر لم يقع فيه طلاق ولا افضاء كما هو المذهب الذى ارجو فى هذا المجال •

وبهذا لا نحكم بوقوع الثلاث دفعة واحدة اذا قال : أنت طالق ثلاثا ولا نحكم بوقوع الطلاق اذا كان معلقا كأن يقول : ان فعلتكذا فأنت طالق وهو لايحب الطلاق ولا يريده ولابوقوعه فى قول اللاعب الهازل مع زوجه أو غيرها أنت طالق أو هى طالق ، ولا فى قول البائع : على الطلاق ان هذه السلعة بكذا ، أو امرأتى طالق اذا لم تكن السلعة من نوع كذا ، أو على الطلاق لا بد أن تأكل أو تفعل كذا ولا يقع والمرأة فى حيض أو نفاس أو طهـر اتصل بها فيه ، ولو أوقع عليها طلاقا فى طهر لم يتصل بها فيه ثم أوقع عليها طلقة أخرى فى الطهر نفسه لا تقع تلك الطلقة الثانية • وكذلك لا يقع طلاق وهو فى حالة سكر أو غضب يملك عليه اختياره)) •

كما يقول الاستاذ الشيخ محمود شلتوت :

وهكذا تضيق دائرة الطلاق •• وتضيق •• حتى يؤدى الطلاق رسالته التى شرع من أجلها من ايقاع الفرقة بين زوجين تبينت استحالة حياتهما معا فى بيت ، وحتى لا يدخل فىهذه الدائرة عبث بمقدرات الأسرة •

ولقد أهاب القرآن بعد هذا بمن يريد طلاق زوجته أن يطلقها طلقة رجعية واحدة ، ثم أباح له أن يراها ويدخل عليها ورغبها فى الوقت نفسه أن تتزين وتتلطف معه فى الحديث لعله يثوب •

فاذا مضت ثلاث تطليقات رجعية كان معنى ذلك أن مرارة الخلاف مرتفعة وان لا أمل فى العودة الى الحياة معا وعندها تكون البينونة الكبرى التى لا أمل بعدها فى لقاء ٠

وبالرغم من هذا كله فتح القرآن أمام الزوجين ثقبا ضيقا يريان منه بصيصا من الأمل ، ذلك هو « التحليل » بأن تنكح المرأة زوجا غير زوجها الأول ويذوق عسيلتها وتذوق عسيلته على أن لا يقصد التحليل لأنه فى حد ذاته قبيح مكروه ، وقصده مستنكر حرام قبحه الرسول وحذر منه فان قصداه حلت عليهما اللعنة « لعن الله المحلل والمحلل له » ٠

فلعل الرجل عندما يرى زوجة الأمس فى أحضان غيره اليوم تثور فى نفسه كوامن ما قد يكون فى نفسه من بقايا غيره أو اثارة حب وتلك براعة من القرآن واعجاز وحكمة ٠٠ فى استنهاض قلب الرجل واهاجة مشاعره لاستخلاص ما لعله يكون فى قلبه من حب خمد أو رغبة فترت فتأخذه العزة وتحركه الغيرة على أن يبدآ معا من جديد تجربة جديدة اذا طلقها المحلل راغبا من غير اكراه له أو تأثير عليه « فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون [١] » ٠

فاذا لم تحرك الزوج هذه التجربة على ما بها من قسوة وضراوة كان ذلك دليلا على فقدان العاطفة وانعدام الرغبة فى المطلقة وحينئذ فاستمرار الطلاق لهما خير وأولى ٠

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٠ ٠

هذا اذا كان النشوز والعصيان من جانب المرأة ، فاذا انعكست الصورة وشذ الرجل وأمعن فى اساءة المرأة فان القرآن يبيح للمرأة حينئذ أن تستنقذ نفسها من جحيم عذابه وغطرسته فتفتدى نفسها بما قدمه اليها من مهر أو بأى مال يتفقان عليه •

فان لج فى عناده وغطرسته كان لها أن تخرج من نطاق عسفه •

فان خرجت عن طاعته ورفضت النفقة من الزوج كان لها حق طلب الطلاق من القاضى لأنها حينئذ لم تتجاوز حدود العدل فلها الأنصاف « فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به (١) » •

وبعد ••

هذا هو موضوع الطلاق ورأى القرآن فى الطلاق فهل بعد هذا يمكن أن يقال ان الطلاق سيف مصلت على رقبة المرأة يهددها به الرجل عندما يريد •

وماذا بعد أن أحاط القرآن الطلاق بأشواك مخوفة من الأعباء المادية المرهقة للرجل اذا ما تمرد على زوجته وطلقها من غير سبب فلها المتاع كله ولها الصداق المتاخر ولها متعة مندوبة لا تتجاوز نفقة سنة « على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المتقين (١) » ولها نفقة أولادها الصغار فى حضانتها ولها السكنى فى بيته أثناء العدة والانفاق

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٦ •

عليها بما يناسب حالتهما الاجتماعية « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتتضيقوا عليهن [(١)] » « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا [(٢)] » ولها النفقة عليه ان كانت حاملا طوال حملها « وان كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن [(٣)] » فان وضعت مولودها كان عليه أجرة الرضاع لها ان أرضعته أو لغيرها أن لم ترضعه « فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وائتمروا بينكم بمعروف وان تعاسرتم فسترضع له أخرى [(٤)] » •

على أن تكون هذه النفقة فى حدود طاقة الرجل وامكانياته بلا تعسف وارهاق وبلا بخس « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا [(٥)] » •

ماذا بعد كل هذه النفقات والالتزامات يتحملها الرجل نتيجة للطلاق وهل يقبل العقل أن يقدم رجل على مثل هذه التضحيات لمجرد العبث بمصير المرأة وهل يمكن لقائل بعد هذا بتقييد الطلاق او تحريمه وقد وضع الله حوله الضمانات للمرأة ووضع حوله القيود والالتزامات على الرجل •

وهل يمكن لقائل أن يقول بعد ذلك ان القرآن يهدد المرأة فى شريعة الطلاق بعد أن أحاطه بمثل هذه القيود فى الوقت الذى

---

(١) سورة الطلاق الآية ٦ •
(٢) سورة الطلاق الآية ١ •
(٣) سورة الطلاق الآية ٦ •
(٤) سورة الطلاق الآية ٦ •
(٥) سورة الطلاق الآية ٧ •

جعل طلب الخلع من المرأة مطلقا بلا قيد أو شرط فبينما نجـد الطلاق فى اثناء الحيض والطهر الذى مسها فيه بدعة أو باطل نجد الخلع فى الوقت ذاته كما يقول ابن قدامه (١) « لا بأس به فى الحيض والطهر الذى أصابها فيه » لان المنع فى الحيض من أجل الضرر الذى يلحقها بطول العدة والخلع لازالة الضرر الـــذى يلحقها بسوء العشرة والمقام مع من تكرهه وتبغضه وذلك أعظم من ضرر طول العدة فجاز دفع أعلاهما بأدناهما ولذلك لم يسأل النبى صلى الله عليه وسلم المختلعة عن حالها لان ضرر تطويل العدة عليها والخلع يحصل بسؤالها فيكون ذلك رضاء به ودليلا على رجحان مصلحتها فيه » فقط هل للناس ان يفهموا القرآن وحكمته قبل أن يكتبوا منددين بنظام ما مدفوعين وراء الغـرور ومنساقين وراء التقليد لما يحسبونه الجديد .

□

فاذا انقضت العدة وتأكد خلو الرحم من ماء الزوج وانقضى كل ما بينهما من علائق الزوجية وتأكد العزوف من كليهمـــا وانقطعت كل خيوط الامل فى اللقاء من جديد فان القـــرآن لا يترك الاولاد نهبا للتشرد والضياع بل يجعلهم فى حضـــانة الزوجة اذا كانوا صغارا واذا كانت عاقلة خالية من الامراض المعدية وغير متزوجة بغير ذى رحم واذا كانت مستوفاة لشروط الحضانة .

فان لم يكن او بلغ الاولاد سن السابعة او التاسعة والبنات

---

(١) المغنى جـ ٧ ص ٥٢ .

سن الثانية عشرة او بلغوا حدا تقتضى مصلحتهم انهاء حضانتهم فى كنف الام كان الزوج أحق بأولاده حينئذ يرعاهم ويكفيهم شر التسول والضياع ٠

وحماية لكيان الاسرة أوصى القرآن الفرد باحـــــترام الاعراض والمحافظة على السمعة والكرامة وغض النظر من كلا الرجل والمرأة حتى لا يكون احدهما موضع شــك الآخــــر وريبتــــه ٠

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظــوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون ٠ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبـــدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن او ابنائهن أو أبنــــاء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن او بنى أخواتهن او نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهــروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أية المؤمنون لعلكم تفلحون (١) » ٠

وحرم القرآن الزنا باعتباره خيانة زوجية تفكك كيــــان الاسرة والمجتمع « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحـــد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنـــون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفـــة من المؤمنين ٠٠

---

(١) سورة النور الآية ٣٠ ، ٣١

« الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين (١) » ٠

ثم حرم قذف الزوجة بما يشين كرامتها وقذف الزوج بما يعيب سمعته « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ٠٠ الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم ٠٠ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ٠٠ ويدرأ عنها العذاب ان تشهد اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين ٠٠ والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله تواب حكيم (٢) » ٠

ثم يعلى القرآن من قدر الدفاع عن العرض « من قتل دون عرضه فهو شهيد » ٠

ثم يفرض آدابا أسرية من شأنها الحفاظ على هذه العروض وعدم انتهاك حرماتها مما يجعل للاسرة عناية خاصة ومنزلة جليلة كنواة المجتمع الراشد السعيد ٠

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم وأطهر والله بما تعملون

---

(١) سورة النور الآيتان ٢ ، ٣ ٠ (٢) سورة النور ٤ ــ ١٠ ٠

عليم [1] » « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ‥ واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم [2] » ٠

وهكذا يقدس القرآن العرض وكرامة الاسرة ويهذب الغيرة وينقيها من الشك ويشجعها وينشر جو الثقة والتفاهم بين الزوجين حتى يحافظ كل منهما على مقدرات الاسرة وحتى يستطيعا أن يعيشا فى سلام ويعيش مجتمعهما فى وئام ٠

---

(١) سورة النور الآيتين ٢٧، ٢٨

(٢) سورة النور الآيات ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ٠

٨ - علاقة الفرد بوالديه ..

وليس فى الحياة علاقة أسمى وأقدس من علاقة الانسان بوالديه تلك العلاقة التى أحاطها القرآن بالقداسة والجلال حتى جعلها بعد العلاقة بين الانسان وربه مباشرة ولهذا نجده يقرن الاحسان الى الوالدين بعبادة الله (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا (١)) (وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا (٢)) (وصاحبهما فى الدنيا معروفا (٣)) (ووصينا الانسان بوالديه حسنا «(٤)» « ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا (٥) » .

لأن الوالدين هما سبب وجود الانسان « حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين (٦) » سهرت من أجله الليالى وعمل من أجله الايام ، ولقدجعل الله الجنة تحت أقدام الأمهات وجعل العمل لراحتهما يعدل الجهاد فى سبيل الله فلقد صح أن النبى قال لشاب جاءه متطوعا للقتال : أحى والداك ، قال نعم ، قال ففيهما فجاهد ، بل لقد ذهب الرسول الى أكثر من ذلك حين قال : « رضا الله فى رضا الوالدين وسخط الله من سخط الوالدين » ومهما ظلم الوالدان ولدهما فلن يسقط ذلك حقهما عليه وبره لهما « من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦ .
(٢) سورة الاسراء الآية ٢٣ .
(٣) سورة لقمان الآية ١٥
(٤) سورة العنكبوت الآية ٨ .
(٥) سورة الاحقاف الآية ١٥ .
(٦) سورة لقمان الآية ١٤ .

مفتوحان الى الجنة ومن أمسى فمثل ذلك وان ظلما وان ظلما وان ظلما • ومن أصبح مسخطا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان الى النار ومن أمسى فمثل ذلك وان ظلما وان ظلما وان ظلما » •

ولقد تكفلت السنة ببيان جزاء الذين يفضلون زوجاتهم على أمهاتهم فقد ورد على أثر قصة علقمة الذى فضل زوجته على أمه بعض تفضيل فحيل بينه وبين الشهادة ساعة الوفاة حتى رضيت أمه « يا معشر المهاجرين والانصار، من فضل زوجته على أمه لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » •

قالت أسماء بنت أبى بكر لرسول الله ، يا رسول الله ان أمى قدمت الى وهى مشركة أفأصلها ، قال رسول الله صلى أمك » فان رعاية الوالدين والرفق بهما والاحسان اليهما أمر واجب •• حتى ولو كانت المغايرة فى الدين الا اذا أمرا بمعصية أو باشراك أو « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » •

« وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون (١) » •

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولد عاق لأبيه انت ومالك لأبيك فالانسان وما ملكت يداه لوالديه فى القرآن وتجب النفقة اذن على الولد لكل منهما •

---

(١) سورة لقمان الآية ١٥ .

علاقة الانسان بأولاده ••

الأولاد ثمرة الحياة وفلذة الاكباد وهم أطفال اليوم وشباب المستقبل أمل الامة ومرتجى المجتمع ، ولذا أحاطهم القــــرآن بما يحمى هذه الطفولة ويؤمن مستقبلها واعدهم لأن يكونـــوا عند أمل أمتهم فيهم فأوصى الانسان بالعطـــــف على أولاده والرحمة بهم والعدل بينهم وتربيتهم تربية فاضلة تقوم على الدين والخلق وأن يجنبهم سبل الانحراف « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا [1] » والولد من الاهل •

والولد كعجينة لينة قابلة للتشكيل حسب ما يبتغى المربون فلينظر كل انسان الى ولده كيف يربيه وكيف ينشئه ولينظر كل فرد الى الامة من وراء الطفل التى تنتظره وتعقد على شـــبابه الآمال الكبار •

وعلى الأمومة يقع العبء الاكبر فى تربية الاطفال وخلـــق الاجيـــال ومن أجل هذا وبدافـــع من الحرص الشديد عـــلى أمتنا وعلى مستقبلها ننادى الحريصين مثلنا على مستقبل هذه الامة وكل ندائنا اخلاص ورغبة بعيدين عن الجمود والتزمت •

اننا وان كنا نؤمن بعمل المرأة خارج البيت على أن تكون هناك ضرورة تدفعها اليه فاننا نؤمن ايمانا لا يتطرق اليه خلجة شك أن عمل المرأة فى بيتها لا يقل أهمية بل يزيد قداسة وخطورة عـــن عملها خارج البيت •

وان المرأة التى تخرج رجلا انما هى المرأة السامية التـــى

---

(٢) سورة التحريم الآية ٦ •

أدت رسالتها الانسانية التى من أجلها خلقها الله ٠

وعلى البيئة والجو الذى تعيش فيه الاسرة تقع مسئولية أخرى فى تنشئة الطفل وتكوينه وان الاثر الذى تحققه البيئة أو التيارات النفسية فى مجال الاسرة لذو أثر كبير فى اعداد الولد من كل النواحى النفسية والخلقية والجسمية وخاصة من ناحية العقيدة التى يدين بها فى حياته « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ٠ »

وفى القرآن مثل عليا لتربية الاطفال واعدادهم اعدادا اجتماعيا كاملا مما يشهد لحكمة القرآن الكريم فى هذه الناحية ٠

« وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم (١) » « يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير ، يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وأصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور ٠ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ٠ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير (٢) » ٠

نموذج رائع فعلا للتربية المثالية على المبادىء الخلقية القويمة التى تبث فى المجتمع روح السمو وتدفع به الى طريق الخير والنجاح ٠

---

(١) سورة لقمان الآية ١٣ ٠

(٢) سورة لقمان الآيتيم ١٦ — ١٩ ٠

ونموذج آخر يسوقه القرآن فى مقام التوجيه والارشاد من والد محنك يحرص على سلامة ولده ونجاته ، ولكنه ابن منحرف جاهل يجهل طرق النجاة فى الحياة ويحسب أن الالتجـاء الى الجبال وغيرها من الأمور المادية تنجيه من عذاب الله ٠

« ونادى نوح ابنه ، وكان فى معزل ، يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء [1] » ٠ ولكن أباه الشيخ النبى يلفت نظره ويصيح به ويناديه أن المادة لا تغنى ولا تنجى ، وانما النجاة فى الالتجاء الى مـا هو أبقى من المادة وأنفع ٠٠ الى الأمور الروحية التى تستتبع الالتجاء اليها رحمة الله التى تحميه شر الطوفان والغرق فيـه ، وتحمى الانسان فى كل الأجيال « قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين [2] » ٠

وبجانب هذا النموذج العلوى الذى يروى قصة ابن انحرف عن الجادة وضل الطريق يقص لنا القرآن قصة ولد بار بأبيه طائع له حتى لو كلفته هذه الطاعة أن يقدم حياته ذاتها طوعا لأمر أبيه الذى يربى فيه قوة الشخصية عن طريق المشاورة ٠

« فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين [3] » ٠

وهكذا يقدم لنا القرآن هذه النماذج الرائعة المعجزة ليقتدى بها بنو البشر ، حـتى يتكون على أسسها النشء فى المجتمـع

---

(١) سورة هود ٤٢ ، ٤٣ ٠ (٣) الصافات ١٠٣ ٠
(٢) سورة هود ٤٣ ٠

الاسلامى فتكسب بهم الأمة خير الدعائم لحمايتها وقيادتها ، ونجاحها فى الحياة وكما تجب النفقة للوالدين على الولد فـــانها تجب عليهما لولدهما الصغير أو العاجز أو الطالب الذى لا يقدر على الكسب ويؤديا عنه صدقة الفطر جريا على قواعد الاسلام ٠

علاقة الانسان بأخوته : ــ

وعلاقة أخرى من علاقات المجتمع فى محيط الأسرة مجدها القرآن وأعلى من قدرها وبين أن من شأنها التعاطف والتسامح والصلة والأيثار •

فعندما ترك المهاجرون أهلهم وأموالهم وديارهـم فى مكة ، وهاجـروا الى الله ودينه ورسوله فى المدينـة واختل توازن المجتمع فى المهجر الجديد نتيجة لنشوء طائفة لا تملك قوت يومها وليلتها بينما كانت طائفة الانصار أصحاب المدينـة الأصليين يتمتعون بكل أسباب الاستقرار والرخاء ، لم يجد الرسول عليـه الصـلاة والسلام حلا لهذه الأزمة التى تهدد المجتمع الاسلامى الناشىء ، الا أن يرفع العلاقة بين أفراده الى درجـة الأخوة • فآخى الرسول بين الطائفتين ، بين الأنصار والمهاجرين •

وبهذا الحل وحده أقبل المهاجرون يقاسمون اخوانهم الانصار فى أموالهم يؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة •

« والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هـاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون [١] » •

والأخوة هى الرحم الخاصة القريبة من الانسان التى أمر الله لها بمزيد من الوصل والرعاية والاحسان •

ولعلنا نلمس مقدار هذه العلاقة من تحريم الجمع بين الأختين

---

(١) سورة الحشر ٩

فى الزواج لما فيه من جرح الأخوة وقطيعة الرحم ، ومن تحـــريم زواج الاخت لما فيه من شبه اهانة كاستخدام أو افتراش الأمر الذى تعلو عليه وتسمو علاقة الأخوة « حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم وأخواتكم (١) » « وأن تجمعوا بين الأختين الا ما قـــد ســـلف (٢) » .

وفى المجال المادى فان واجب الأخوة يستلزم التضامن الفطرى ولكن القرآن ليسد الباب تماما فى وجه بعض النفوس المريضة حث الأخ »ن يتحمل أخاه وما يحمل من أعبـــاء ليحمله أخـــوه ويحمل عنه ما يحمل من أعباء ولذا نجد القرآن يشدد فى صـــلة هذه الرحم القوية ومن الناحية المادية بالذات بالانفاق والهبات وغيرها من أنواع التقرب المادى اذ هو مظهر التعاون ورمـــز الصلة التى تظهر للعيان « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون (٣) » « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام (٤) »

---

(٢) سورة النساء الآية ٢٣ . (٣) البقرة ٢٧
(٤) النساء ١

علاقة الانسان بالقرابات : ـ

كذلك أراد التشريع الحكيم أن يربط الأسرة كلها برباط وثيق ليتماسك كيانها ويتحد حتى يكون مجتمعا أفضل وأمة أسعد .

فأمر الله الانسان بصلة القرابة والرحم ، ولم يأمره مجرد أمر فحسب بل شدد فى الأمر وحذر من تركه ، وجعل اللعن والطرد من رحمته عاقبة مخالفته « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم .. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم (١) ».

« والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب .. والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار (٢) » .

« واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا (٣) » .

ولقد بينت السنة المطهرة أن الرحم نوعان : خاصة وعامة .

فالخاصة قرابة الرجل من والديه وولده ، وكلما قربت وجبت صلتها وعظم شأنها .

والعامة : رحم الدين والخلق .

---

(١) سورة محمد الآية ٢٢ ، ٢٣ .   (٣) سورة النساء الآية ١ .
(٢) سورة الرعد الآية ٢٢ .

وتمتاز الأولى بمزيد من العنــاية والرعاية وتفقــد الحال والنصح وتناسي الاساءة والسعى فى المصلحة والعدل والانصاف وتأدية الحقوق والواجبات ثم المستحبات ٠

على أنه اذا تعارضت الرحمان قدمت رحم الدين والخلق ، فلا « طاعة لمخلوق فى معصية الخــالق » والله ورسوله أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأموالهم ووالديهم وأولادهم والأقربين ٠

ولقد أشار القرآن الى أن الرحم العــامة تتسع وتتسع حتى تشمل الرحم الكبرى فى الانسانية وهى الأخوة العظمى التى خلقها الله من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجــالا كثيرا ونساء ، ثم جعلهم شعوبا وقبائل ، وصلة هــذه الرحم الكبرى تكون بمــا يلى مما ســنذكره بعــد فى علاقة الفــرد بالمجتمع كله والانسانية عامة ٠

وفى الماديات ٠٠ لف التضامن الاجتماعى كل أفراد الأسرة وما يتصل بها من رحم وقرابات وأوجب على الفرد أن يصــلهم ويحسن اليهم بماله وخلقه وقد ورد فى صلة الرحم الكثير مــن الآيات والأحاديث بالعرش فى مقام العائذ به من القطيعة فيقول الله لها « أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك تقول بلى يارب يقول الله فهو لك » ٠

ولعلنا نلمس من تسمية الرحمن نفسه بها قيمة هذه الرحم

□

الباب الرابع

مـــع المجتمع

الباب الرابع

مع المجتمع

مقدمـــة ..

وكما أوجزنا الكتابة فى بناء القرآن للفرد والاسرة نود أن نوجز الكتابة عن بناء القرآن للمجتمع بوجه عام مهتدين بهـــدى القرآن .

وعلى نفس الطريق وعلى المنهج الذى سلكه القرآن ــ فى نظرى ــ فى اعداد الفرد وتكوين الأسرة فى مجال الروح والمادة سلكه أيضا فى بناء المجتمع فى مجال المادة التى لا تنفك عـــن الروح .

وهكذا نرى القرآن يبدأ من القـــاعدة الى القمة من الفرد الى الأسرة الى المجتمع كله ليرسى دعائمه ويخطط حياته ويعالـــج مشكلاته على ضوء من السماء فى رفق وفى أناة .

فالى وضـــع النقط فوق الحروف وتفصيل هذه العناوين .. الى حلقة هامة من حلقات الحكمة فى القرآن الكريم .

٩ —

النظام الاسلامى بوجه عام

ارتضى القــرآن العدالة الاجتماعية نظاما يسير عليــه فى اقتصادياته لأنه هو النظام الذى يتمشى مع مبدأ المساواة فــى الاسلام وهو النظام الذى تتوفر فيه العدالة الاجتماعية أكثر من سواه من أنظمة الاقتصاد ٠

فالرأسمالية : تمثل الصراع البشرى والتسابق الذى لا يعرف الحدود بين الناس من أجل الثروة وتحصيــل اقصى ما يمكــن تحصليه من المال وهى نظام طبقى فلا يرضاه الاسلام ٠

والشيوعية : تمثل ذوبان الشخصية الانسانية فى محيــط مادى صرف لا يعترف بالقيم الروحية وأثرها ولا يقدر الديــن وفضله ، فى بناء المجتمعبل انها تعتبر الدين أفيون الشعوب تحرق فى هياكلها ومعابدها طاقاتها البشرية الخلاقة ولكن الاسلام لا يؤمن بالصراع الطبقى لأن الانسان ليس حيوانا فاقد العقل أو الضمير حتى ينطلق فى أى نوع من أنواع الصراع الذى هو الى طبيعة الحيوان أقرب وهو يعتبر الايمان بالله طاقة روحية هائلة لا يستغنى عنها العالم فى أى وقت من الأوقات ٠

ولقد رأى أحد المفكرين الأوربيين أمريكيا من أصحاب رؤوس الأموال يعقد اجتماعاته مع موكليه أثناء تنــاول الطعام ويتلقى الخطابات من سكرتيره وهو يركب الأتوبيس فقال « أخشى أن تتأمرك أوروبا فلا تفهم معنى للحياة غير احراز الثروة فقط » ٠

ولقد اعترف استاذ الدراسات الاسلامية فى جامعة كبيــرة

بنفسه أن الدراسات الشرقية والاسلامية أصبحت محط أنظار الشباب وقد أقبل على دراستها الكثير من الشباب لاحساسهم بجفاف الروح بعد الثورة الصناعية والاقبال على المادة ذلك أن الدراسات الاسلامية تعنى أكثر من غيرها بتربية الروح وتهذيب الضمير ٠

ولقد أحست أمريكا وهى تعيش فى ظل النظام الرأسمالى طوال أمد بعيد ، أحست حاجتها الى القيم والمبادىء الروحية ورأى مفكروها هذه الوهدة التى انحدرت اليها بلادهم فجاء أحدهم الاستاذ « كنيث مورجان » الى القاهرة مركز اشعاع الاسلام ليلتقى بعلمائنا ليرشدوه عن أمثل الكتب التى تبحث فى الدين الاسلامى ليترجمها الى الانجليزية وليقرأها الناس فى بلده علها تصرفهم عن عبادة المادة التى قتلت فيهم الاحساس بمعنى الحياة وتوجههم وجهة روحية يدركون منها أسرار هذا الوجود بعد أن نجحوا النجاح كله فى دنيا العمل والمال واخفقوا الاخفاق كله فى دنيا الروح والاخلاق حتى أقفرت حياتهم ، رغم الثروة التى لم تستطع بكثرتها ومدنيتها أن تقدم لهم أسباب الراحة والاستقرار ٠

وشعروا مؤخرا بحاجتهم الى السعادة الروحية والاستقرار العاطفى الذى لا يكفله الاستقرار المادى ولا تغنى عنه الوفرة المالية فأقبل شبابهم وجاء وافدهم يبحث عن السعادة والاستقرار فى حنايا الروح وظلال الوجدان بعد أن تاهوا عنهما فى زحمة الاعداد وغمرة الارقا م٠

فلتجمع الانسانية من أكداس الاموال ما تستطيع ولكنها لن تجد سعادتها فى هذه الاموال ان هى أهملت جانب الروح ولـــن تجد سعادتها الروحية واستقرارها العاطفى والاجتماعى الا فى رحاب الدين والدين الاسلامى بالذات وكل مذهب اقتصادى أو اجتماعى لا يجعل الدين أساسا من أسسه أو يجعل الروح ركيزة من أهم ركائزه فهو مذهب فاشل لن يقدم للانسانية غير الحيرة والقلق وغير التفكك والاضمحلال •

ومهما بلغت الشيوعية والرأسمالية من التزييف المادى فلن يثبت لهما قدم على الزمان ولسوف تبقى خطة الاسلام وحدها هى الخطة المثلى فى كل مكان فهى لا تسمح بالطبقية والفواصل بين النـــاس بـــل الكـــــل أخوة متساوون فى القيم وفى جـــزاء الاعمال كما لا تهمل المواهب الانسانية أو تذيبها فى هدير الآلات وهى تحض على العمل وتكفله للمواطنين جميعا على أنه الطريـــق الشريف للكسب المشروع والتقدم المرجو « ولكل درجات ممـــا عملوا » الانعام ١٣٢ » •

أما الكسب الغير مشروع المتحصل عن طريق الاستغلال أو الانتهاز فيجب أن يعاد الى بيت المال ليعود الى الجماعة حقهـــا الذى اغتصب منها فى ظروف غير طبيعية •

وهى لا تؤمن بالربا (وحرم الربا (البقرة ٢٧٥) ولا تقر الاحتكار أو الاستغلال أو الانتهازية الجشعة التى لا تقدس الا المادة ولا تعترف بشىء ا المال •

والأرض ـــ فى نظر القرآن لله « ان الأرض لله يورثها مـــن

يشاء من عباده) الاعراف ١٢٨ » يجب احياء مواتها واصــلاح البور فيها ·

ويجب نزعها ممن يملكها اذا أهملها لأنه يعبث حينئذ بأرزاق الناس ومقدراتهم ، والاسلام لا يقر الاستغلال فى شتى صوره ·

ويحدد ملكية الارض وينزعها من مالكها فى ظروف يريد فيها هذا المالك الاستغلال والعبث بمصائر الناس وبديهى أنه اذا لم تتوفر شروط الاستغلال فان الملكية لا تمس ·

□

وعلى الجملة ، نستطيع أن نقول :

ان أخلاقيات الاسلام قد سمت ــ بما وضع من نظم مادية ــ على كل ما وضع الغربيون والشرقيون من هذه النظم ، ولكنهــا الدعاية تعمى وتصم وتغلق الضمير عن كل نداء ·

وستظل تجربتنا الرائدة فى عهد الرسول (صلى الله عليــه وسلم) وأصحابه مثلا ناجحا يقدمه المسلمون للعالم كله ومذاهبه دليلا فعليا على حكمة القرآن وصلاحه لكل زمان ·

الاكتفاء الذاتى

ومن مجموع ما وضع الاسلام من نظم لبناء المجتمع يبدو الاكتفاء الذاتى للمجتمع خصيصة من خصائص المجتمع القرآنى

ولقد كان القرآن هو الكتاب السماوى الوحيد الذى حقق نظرية الاكتفاء الذاتى فى المجتمع اذ قرر لولى الأمر أن يتصرف فى أموال الدولة بما يشاء على ضوء من الصالح العام حتى تتحقق القوة والعزة للمجتمع لتعود العزة لله ولرسوله وللمؤمنين • وليستقل المسلمون فى تحقيق ما يحتاجون اليه من الضرويات والحاجات فيما بينهم دون معونة من أحد وحتى لا يتدخل فى ادارتهم والتحكم فيهم أحد •

ولقد قرر العلماء المسلمون منذ قرون ضاربة فى أعماق التاريخ البعيد أن كل ما لا تستغنى عنه الأمة فتعلمه فرض كفاية بحيث اذا هجره الكل أثموا جميعا فلا بد اذن على ضوء ما قالوا من تعلم كل فنون الحياة التى لا تستغنى عنها الجماعة •

كما ألقى القرآن على كاهل أولياء الأمور حمل مسؤلية هذا الاكتفاء الذاتى الذى به يستغنى المسلمون ويسود دينهم •

ولقد أعطى الاسلام فى سبيل ذلك القاعدة الشرعية التى المشهورة « ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب » ولما كان الاكتفاء الذاتى فى المجتمع واجبا لا يتم الا بتنسيق الثروات

الاقتصادية الزراعية والصناعية والتجارية فقد أباحت هـــذه القاعدة للحاكم أن يحول الأراضى الزراعية الى موارد صناعية أو بالعكس كلا منهما الى تجارية •

كذلك اوجبت تنسيق تعليم العلوم جميعا فى حدود الصالح العام •

التضامن المادي

« ان الله له ملك السموات والأرض » • (التوبة ١١٦)

« للهما فى السموات وما فى الأرض » • (البقرة ٢٨٤)

« آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (الحديد ٧)

« وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » • (النور ٣٣)

□

المال اذن ــ كما يقول القرآن ــ مال الله جعل الانسان مستخلفا عليه من الله لتحقيق مصلحة الجماعة التى هى عباد الله يحافظون عليه جميعا وينتفعون به « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا (البقرة ٢٩) » وما المستحلف عليه الا حارسه والقائم عليه والمتصرف فيه •

ولما كان المال بهذه المثابة فى نظر القرآن حارب الاسلام ما قد يكون لدى مالكه من شح أو أثرة وأنانية تمنع البذل والتصدق والانفاق وحذر من البخل وأعد للبخلاء أليما من العذاب « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ــ آل عمران ١٨٠) » « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم •• يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ــ التوبة ٣٤ ، ٣٥ » ورغب القرآن فى الانفاق باعتباره محققا للتضامن المادى فى المجتمع « الذين يقيمون

الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنــون حقــا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم (الانفال ٣ و ٤) » ٠

ولقد ربط القرآن أفراد المجتمع جميعــا برباط واحــد هو الايمان بالله الذى ترتبت عليه الأخوة فى الله تلك الاخوة الدينية التى جعلها القرآن رحما عامة لكل فرد عليــه أن يصلها ماديــا ومعنويا بالمال والود ، وبالنفقة والمحبة فاذا بذل الانسان من مال الله الذى استخلفه الله عليه على أخوته ورحمه تحقق التضامن المادى فى المجتمع ونعم الكل بنعمة الله فلا يحقد فقير على غنى ولا يستعلى غنى على فقير ٠

تلك هى حكمة القرآن فى تحقيق هذا التضامن المادى بــين أفراد الأمة فهل عرفت التشريعات الوضعية والسماوية المشوهة من قبل هذه الحكمة ٠

القضاء على الربا

ولعلنا أدركنا – من ما مضى – ما فعله القرآن لاصلاح الفرد والمجتمع وما عمله لارساء مجتمع ترفرف عليه المحبة ويسوده التعاون ويملأه الخير والبر وما غرسه الاسلام من قيم روحية قصد من ورائها الى تهذيب المجتمع وتنقيته من أدران المادة القاتلة التى تحيل المجتمع الانسانى الى مصطرع كبير يمتص فيه القوى دم الضعيف ويسود فيه الغنى على الفقير ، ويضيع فيه الضعيف والفقير معا تحت أركام من الضياع والعبودية فتطل الفتنة برأسها وتنهار المساواة من أساسها وينحل المجتمع .

ولكن شيئا واحدا لو مارسه الأفراد لبعدوا فى أقتصادهم عن هدى القرآن . ذلك الشىء هو الربا .

ذلك أن فى الربا قضاء على الاخوة والرحمة والتعاون وكل القيم الروحية فى الانسان ، وفيه بعد هذا استبعاد للقرض الحسن فى سبيل الله .

بل ان الربا أكبر بواعث الشر فى الاقتصاد والمجتمع .. من أجله تاه بنو اسرائيل فى الضلال وضاع العرب فى الصحراء قبل مجىء الاسلام .

فلما جاء القرآن اقتلعه من جذوره ، ووضعه من أساسه ، وكان أول ربا وضعه النبى ربا عمه العباس وكان ذلك أقوى دليل على بغض الشريعة للربا والمرابين حتى ولو كان منهم عم النبى

والعباس بالذات ٠ ((الا أن كل ربا فى الجاهلية موضوع وأول ربا أضعه هو ربا عمى العباس)) : ((يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافــا مضاعفــة (آل عمــران ١٣٠))) ((وأحل اللــه البيــع وحــرم الــربا (البقــرة ٢٧٥))) ((كــل قرض جــر نفعا فهو ربا)) ((يمحق الله الربا ويربى الصــدقات (البقــرة ٢٧٦)) ((الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كمــا يقوم الــذى يتخبطه الشيطان من المس (البقرة ٢٧٥) ٠

ولقد يظن المرابى أن مال الربا يزيد من ماله لكنها زيــــادة ظاهرية واستدراج من الله ذلك من قبيل ((ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا (النساء ١١٥))) ٠ ذلك أن اللــه يملى للظالم حتى اذا أخذه لم يمهله و ((ان أخذه أليم شــديد (هود ١٠٢))) ٠

قال تعالى ((وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فــلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون (الروم ٣٩))) ٠

فالزكاة هى الطريق الطبيعى ــ وليس الربا ــ لزيادة المــال زيادة حقيقية عند الله وعند الناس ٠

ومن البشائر ، أن الاستعمار بعد أن قتلنا زمنا وفكك مجتمعنا بنشر ذلك الوباء المادى وأغرى تجارنا به رغبة القضاء على تعاليم القرآن ومقدرات الاسلام ، بعد ذلك بدأت الشعوب الاسلاميــة هذه الايام بمحاولة البحث عن بديل اسلامى يتفادى خطر الربا

وبدأت البحوث الاسلامية حول هذا الموضوع تتجه نحو انشـــاء بنك اسلامى لاربوى وقد قام الدكتور عبد العزيز كامل وزيـــر الاوقاف فى الجمهورية العربية المتحدة بتقديم بحث شامل حول هذا الموضوع فى المؤتمر الاسلامى الذى عقد بماليزيا فى أبريل سنة ١٩٦٩ حاز اعجاب العلماء والمسئولين المسلمين الذيـــن حضروا المؤتمر كما قدم السيد محمد باقر الصدر بحثا حول هذا الموضوع كذلك وغيرهما من البحوث التى تشير الى قرب بزوغ تعاون اسلامى بناء فى هذا المجال ان شاء الله ٠

القيم الروحية في القرآن

« ان القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قــادرة على هداية الانسان وعلى اضاءة حياته بنور الايمـــان وعلى منحــه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة » •

ولقد بين القرآن قيمة هذه القيم وأثرها على الفرد وعــلى المجتمع ولهذا نراه فى أكثر من موضع يمجد هذه القيم ويلبسها الصـــور النقية البراقة التى يرتاح اليها ضمير المؤمن محـــاولا غرسها فى هذا الضمير ليصفو ويتجرد من أوشاب المادة ودنسها ومتى صفا ضمير الفرد وصلح صفـــا ضمير الأمــة وسارت فى طريقها لا تمنعها الحوائل ولا تصدها الحواجز أو السدود •

ولقد امتلأ القرآن الكريم بهذه القيم الروحية الخالدة حتـــى ليعجز مثل قلمى أن يحصيها فيه أو يعدها ولكننى فى هذه العجالة سأقدم منها أعظمها قيمة وأكثرها منفعة للفرد والأمة فى حدود ما تسمح به صفحات هذا الكتاب المتواضع •

□

١ ــ الايمان بالله

الانسان مدني بطبعــه يجد خيره فى الاجتمـــاع والتعاون فكان لا بد ــ فى نظر القرآن ــ ليجذب الأفراد بعضهم الى بعض أن يوحدهم على مبدأ واحد ويجمعهم حول قيمة واحدة يؤمنون بها ويلتقون عندها ممـــا يحقق لاجتماعهـــم التماسك والبقـــاء •

ولما كانت الماديات وحدها لا تصلح كقيمة روحية يلتف حولها أفراد المجتمع لما بها من تفاوت وعدد فلم يكن بد من قيمة روحية تلتقى حولها كل القلوب وتأخذ كلها منها نصيبا تتوقف كثرته وقلته ـ ان صح هذا التعبير ـ على الشخص نفسه وعلى احساسه نحو هذه القيمة ٠

ولم تكن هناك قيمة روحية أعلى من الايمان بالله فهو أسمى أنواع القيم وأخلدها وأبقاها على الزمان ٠

ذلك أن الله الواحد خالد دائم البقاء أزلى الوجود يفيض على الكل بأفضاله ويمنح الكل نعمه وآلاءه فهو الجدير وحده بأن تلتف حوله قلوب الناس فيكون ذلك لتوحيد المجتمع وتماسك كيانه خير ضمان ٠

ولقد كانت عقيدة التوحيد أول أهداف القرآن وأقوى أصول الاسلام « فاعلم أنه لا اله الا الله (محمد ١٩) » « شهد الله أنه لا اله الا هو) آ عمران ١٨) « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا » بل كانت كلمة التوحيد هى شعار الاسلام الاول منذ اللحظة الأولى له حتى أن الاسلام يعتبر قائلها مسلما تطبق عليه أحكام المسلمين فى الدنيا لمجرد النطق بها عن اعتقاد أو غير اعتقاد « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم » ٠

وكان الايمان بالله وما زال القيمة العليا بل قيمة القيم فى نظر

القرآن حتى حث عليها فى أكثر من آية وسورة « فآمنوا بالله ورسله (النساء ١٧١) » « ومن يؤمن بالله يهد قلبه (التغابن ١١) » « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله (النساء ١٣٦) » « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (الصف ١٠ و ١١) » ٠

ذلك أن الايمان بالله يحيى الضمائر ويمد النفوس بشعور الأمل ويبعث الى القلوب أشعة قدسية من النور تضىء لها طريق الحياة ٠

ولقد تفكك العالم ذات يوم ، وضل العقل الانسانى حتى عبد الحجر ، وتاه الناس فى متاهات الحيرة فلما نزل الاسلام انتشر السلام والأمن وعمت ربوع العالم سكينة واستقرار لم يكن له عهد بهما من قبل ٠

ولم يكن ذلك بقوة السيف والا فقد مضى قبل الاسلام على السيوف زمن لم تعرف لها طريقا الى الجراب ٠٠ انما كان ذلك بفضل الايمان بالله هذه العقيدة الصادقة الحية الخلاقة أو هذه القيمة العليا التى جاء بها الاسلام وآمن بها المسلمون واستماتوا فى نشرها والدفاع عنها حتى سرى منها الأمن والسلام والوحدة الى أغلب بقاع الأرض ٠

٢ ــ المساواة

ولقد انشعبت من الايمان بالله الواحد قيمة أصيلة من القيم التى لا يمكن أن يستغنى عنها

مجتمع من المجتمعات فى أى وقت من الأوقات

فبعد ربط القرآن أتباعه برباط واحد هو الايمان بالله وجعل شعار ذلك الايمان كلمة « لا اله الا الله » كان معنى ذلك الشعار : أنه ليس هناك ما يعبد بحق الا الله وليس هناك فضل لمخلوق على مخلوق بل الكل سواء والفضل كله لله وحده •

وكم أن العالم من طول ما عانى من الفوارق الطبقية ، وما لاقى من الوثنية للانسان أو الحيوان أو الجماد ، وما كابد من الكهنة والأحبار الذين نصبوا أنفسهم وسطاء بين الله والناس الى أن نزل القرآن فتحطمت على صخرة حكمته كل الفوارق بين الناس والمخلوقات وبطلت من يومها عبادة الأثان بمختلف صورها وأشكالها وعلم الناس أن لا حجاب بين الله والانسان « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان « البقرة ١٨٦ » • فلاولى ولا كاهن ، ولا عهود ولا حاخام ولا كرسى اعتراف ولا وساطة بين العبد ومولاه اذا ناجاه •

فالله للكل ومع الكل « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد (ق ١٦) » وفى ظل شريعة المساواة ، التى كانت أعظم تكريم للانسانية سعد العالم ونعم ، وشمله الرخاء والسلام •

□

حتى أعاد التاريخ التعس نفسه ، ومن جديد سخرت التفرقة الدينية والعنصرية فى أرقى امم العالم وأكثرها ادعاء للحضارة وأشدها تبنيا للمدنية •

ولكننى ــ كمسلم ــ لا أملك فى عنفوان هذه الفتنة التى تلف

العالم من جراء التفرقة العنصرية والاضطهاد الدينى ، لا أملك للانسانية الا أن أهدى اليها من قلبى ومن القرآن :

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم (الحجرات ١٣) » ومن نبى المساواة قوله عليه الصلاةو السلام •

« ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب»

ومن قلبى أهدى اليها هذا الشعار : « لا اله الا الله » تبصرة ونكرى •

٣ ــ العـــدل

وكما استتبع الايمان بالله المساواة بين النـــاس فقد استتبعت هى الأخرى قيمة ثالثة هى سبـــب فى نجاح المجتمع ودوام بقائه وعمارته •• هـــى العدل فكون الناس سواء يوجب أن لا يظلم انسان انسانا آخر لأنه مثله لا فضل له عليه فبأى حق يستبد به ويظلمه أو يجـــور عليـــه •

ولقد عبر القرآن عن العدل بما جعله أصلا عظيما من أصول الاسلام وأساسا متينا من أسسه « يأيها الذين آمنوا كونـــوا قوامين بالقسط شهداء لله (النساء ١٣٥) « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » (المائدة ٨) •

وكم نكرنا القرآن بأن العدل سبب دوام الأمم وسعـــادة المجتمعات وأن الظلم مبعث خراب الـــدول وانهيار المالـــك والولايات •

« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وانشأنا بعدها قوما آخرين (الانبياء ١١) « فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد (الحج ٤٥) « ان الله يأمر بالعدل (النحل ٩٠) » « ان الله يحب المقسطين (المائدة ٤٣) » « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به (النساء ٥٨) » .

فالعدل أساس الملك « ودولة الظلم ساعة ودولة العدل الى قيام الساعة » كما قال الخليفة الراشد أبو بكر الصديق صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٤ ــ الحب ١٦

هو فى القرآن : حب الله ، حب الناس .. حب الحياة ..

والحب كقيمة روحية تتحكم فى كثير من ضروب السلوك الانسانى ، فهو مبعث المثالية ومصدر الجريمة فى الوقت ذاته .

ولهذا لم يغفله القرآن باعتباره أحد موجهات السلوك البشرى وكيف يغفله القرآن ومنزله يعلم ما يكنه القلب وما يحويه الضمير .

ولكن القرآن عندما يتعرض للحب فانما يتعرض له ليسمو به الى مستوى الغرائز السامية التى يجب أن توجه لخير المجتمع وخير الجنس البشرى عامة والا يتخذ طريقا الى الجريمة والعبث « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم

ذنوبكم (آل عمران ٣١)) ٠

ولقد تحدث الرسول عن الحب فجعله مبعث التآلف والمودة ((الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف)) كما جعل الحب بين الناس نفحة من حب أكبر ٠٠ من حب الله ٠

((ان الله اذا أحب عبدا نادى جبريل أنى أحب فلانا فأحببه فيحبه جبريل ثم يأمر جبريل فينادى فى السماء أن الله يحب فلانا فأحبوه فتحبه الملائكة ثم ينادى فى الأرض أن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل الأرض)) ٠

وقد أشار القرآن الى طائفة من الناس يحبون الله ويحبهم الله وذكر أوصافهم نموذجا لمريدى هذا الحب والمتعطشين اليه ليسلكوا اليه السبيل ٠

((يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم (المائدة ٥٤))) ٠

وهذا هو سبيل القرآن فى الاعلاء من هذه العاطفة لخير المجتمع حب أعلى نموذجه القرآنى الذل للمؤمنين والتسامح معهم واللين والعطف والمحبة والرفق والتعاون والاخاء والرحمة لكن العزة مع مخالفى الحق والفضيلة والأخذ بنواصيهم والضرب على أيديهم حتى تتحقق عزة الدين وتعلو كلمة الله ، والجهاد فى سبيل الله والوطن وكل ما يعتقد أنه حق والشجاعة فى قولة الحق والجرأة فيه ولو كان السيف على الرقاب ٠

أما الحب الانسانى فقد أقره القرآن وباركه باعتباره من التقويم الانسانى الذى خلق الله الانسان عليه « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم (التين ٤) » •

ولقد حض عليه الرسول « سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل الا ظله ومنهم رجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه ، وافترقا عليه » « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » •

□

وحب الحياة كلها •• حب الطبيعة بجبالها وشجرها وبحورها وأنهارها •• حب كل شىء •• ذلك الحب الذى لا يعرف الحدود الذى يبعث الى القلب ماء الحياة وروح الربيع ويقتلع منه نبتة الشيطان نبتة التشاؤم والنظر الى الحياة والمستقبل بمنظار أسود قاتم لا يرى من ورائه غير الفقر والموت وغير الجهل والحرمان •

« أحد جبل يحبنا ونحبه » « لا تسبوا الدهر فان الدهر هو الله » « لا تسبوا الدنيا » •

وللرسول صور فى حب الحياة والناس بهيجة مشرقة كان المطر ينزل عقب ابطاء فيتلقاه بطرف من ردائه وهو يقول : « انه حديث عهد بالله » •

هم بالخروج يوما لمهمة فسمع بالخارج متحدثا يقول : هذه خضرة فقال « يا لبيك أخذنا فالك من فيك فاخرجوا بنا الى خضرة » •

كان لعمر بن الخطاب بنت اسمها « عاصية » فضاق بهـذا الاسم وسماها (جميلة) وهذا رجل اسمه (حرب) يغير اسمه الى (سلم) وفى السنة المطهرة « ثلاثة يذهبـن الحزن المـاء والخضرة والوجه الحسن » ٠

وفى القرآن صور أكثر اشراقا وأعظم بهجة فى حب الرسول للحياة والناس ٠

كان بالنسبة لأتباعه أولى بهم وبأنفسهم وأموالهم وكـان يعمل على مصلحتهم « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم (الاحزاب ٦) » « لقد جاءكم رسول مـن أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم (التوبة ١٢٨) وكانوا جميعا يرون فى قلبه مصدر الهداية لهم واكسير السعادة لقلوبهم حتى لقـد كان الرجـل منهم يذهب اليه بـكل ما يشكل عليـه من صغيـرة وكبيـرة يلتمس عنـده الهدايـة ويكون له من النبى ما يريـد أما أعداؤه وأشدهم عـداوة له والدهم حقدا عليـه طائفـة المنافقين الـذين تآمروا عـلى حياة الرسول ذاتهـا فى مسجد الضرار ٠

حتى هؤلاء طالما استغفر النبى لهم وطلب من ربه الصفـح عنهم حتى نزلت : « استغفر لهم أولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم (التوبة ٨٠) » ومع هذا قال عليه السلام « لقـد خيرت أن أستغفر لهم أو لا أستغفر فاختـرت الاستغفار والذى نفسى بيده لو علمت أنى لو استغفرت لهم فوق السبعين غفر لهم لاستغفرت » ٠

وعندما ذهب الى الطائف ليدعو سراتها الى الله رفضوا دعوته وسخروا منه وأغروا به الصبيان يقذفونه بالحجارة حتى دميت قدماه وعجز عن مواصلة السير فعرج على بستان يستريح اليه ونزل جبريل فى تلك اللحظة الحرجة من حياته الشريفة ليعرض عليه أن يضم الجبال حول مكة فيزيلها من الوجود ولكنه بقلبه المحب الطاهر النقى يرفض ازالة المدينة ويدعو الله « اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » ٠

وكم تألم قلبه وحزنت نفسه على الذين عصوا أمر ربهم وأنكروا دعوته وكم أشفق عليهم من سوء المصير الذى ينتظرهم جزاء عصيانهم حتى نزل قول الله « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (فاطر ٨) » أو قوله « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين (الشعراء ٣) » أو قوله « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا (الكهف ٦) » ٠

أما كان يكفى أن يؤدى ما عليه وقد أدى على خير وجه لقد كان قبله نوح عليه الصلاة والسلام الذ ىقال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا (نوح ٣٦ ، ٣٧) » سأل ربه المغفرة لطائفة المؤمنين به أما الذين كفروا برسالته فسأل الله محوهم وزيادة خسرانهم « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا (نوح ٢٨) » ٠

كانيك فى أن يكون كنوح من قبله ولكنه القلب الذى يخفق بالحب لله وللحياة وللناس جميعا حتى الذين ناصبوه العداء ٠

يوم دخل مكة فاتحا ودان له الذين أخرجوه وعذبوه وطردوه وكتبوا أشق مرحلة فى حياته ، طلع عليهم وسأل ما تظنون أنى فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء وكأنه يحاورهم تفننا ليستشعروا لذة هذه المفاجأة التى أعتقت رقابهم فى لحظة الصفر التى وقعوا فيها أسرى لمن عذبوه وطردوه تلك المفاجأة التى لا يمكن أن تصدر الا عن قلب كبير ٠٠ وحب كبير ٠

٥ ــ الرحمة عنى بها القرآن كقيمة ذات فعالية فى المجتمع بدونها ينقلب الافراد الى مخلوقات وحشية قاسية القلوب غليظة الأفئدة ينهب بعضها بعضا ويقتل بعضها البعض ٠

ومن حكمة القرآن أن تكون مادة الرحمة فيه مائة وأربعة عشر مرة فى البسملة فقط وفى مستهل كل سورة من سوره جميعا وأن يشتق منها اسم الله الجليل وما ذلك كله ــ فى تقديرى ــ الا تذكيرا للفرد واستنهاضا له ليأخذ بها فى سلوكه ويطبقها عمليا فى حياته قال عليه الصلاة والسلام « الراحمون يرحمهم الرحمن ٠٠ ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » ٠

ومتى تراحم المجتمع قلت الجريمة ، وتوفرت جهود القضاء وكسبت الأمة بها طاقة هائلة تضيع بين القسوة فى الأفئدة والجفاف فى القلوب ٠

٦ ـ الحرية تمثل القيمة الضرورية للانسان ولهذا رأينا القرآن يبرزها ويعلى من قدرها ويمنحها للانسان حرية فوق مستوى الحريات الشهوانية المجنونة التى تتملق بها المذاهب الفلسفية الانسان ٠

لقد أطلق القرآن العقل البشرى من قيود الجهل وقيود الكنيسة وحطم أغلاله وأعاد اليه حريته فدفعه الى النظر والتفكر محررا من كل قيد وغل « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون (يونس ١٠١) » ٠

وعندما تحرر العقل فى الاسلام وتحرر القول وأطلق العنان لكل انسان أن يتكلم بما يعتقد بصراحة ووضوح ما دامت فى حدود المصلحة العليا لأن الاسلام لا يعرف الكبت أو الغموض بل أمر الناس بأن يتواصوا بالحق ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر مهما كلفهم ذلك من مشقة وجهاد « والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » سورة والعصر « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (آل عمران ١٠٤) » وقال عليه الصلاة والسلام « الدين النصيحة » ٠

ولئن كان البعض قد فهم عكسا حرية التعبير فى القرآن بما لم يأت بـه القرآن فان ذلك لا يمس حكمته فى شىء ٠

والا ٠٠ فما الذى يحدث لو أطلقنا العنان لكل انسان بأن يتكلم بكل ما يعلم غير آبه بالمصلحة العليا للأمة وما قد تتأثر به من حرية فى التعبير متهورة رعناء ٠

أليس من الخير اذن أن ندفع مفسدة ونؤخر مصلحة قد ينجم عنها الفساد ٠

ان حرية التعبير فى نظر القرآن انما هى الحرية التى تؤمن بالرقابة ، للمصلحة لا للكبت ، وللتوجيه لا للتكميم ٠

« يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين (الحجرات ٦) ٠

لتسد الأبواب عندئذ أمام مروجى الاشاعات ولتشق الأمة طريقها فى الحياة بمأمن من تزييف الاخبار واساءة التعبير ٠

ونقطة أخرى فقد أقر القرآن للانسان مع حرية العقل والقول حرية العقيدة فله أن يعتقد ما يشاء ويدين بما يريد « لا اكراه فى الدين (البقرة ٢٥٦) » « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر(الكهف ٢٩) » « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا (الاسراء ١٠٧) » ٠

٧ ـ الاخاء

ولقد أكد القرآن هذه القيمة ونشرها فى كثير من سوره وآياته « انما المؤمنون اخوة « الحجرات ١٠ » ٠

ولقد ارتفع القرآن بالأخوة الاسلامية على كل اخوة من النسب أو الرضاع وحتى أصبح المسلم بمقتضاها يحارب أخاه فى النسب أو يقاتله فى سبيل المصلحة العليا للاخوة الاسلامية « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم (المجادلة ٢٢) » وبها صار المجتمع الاسلامى كله

وحدة متماسكة يربطها الايمان وتقويها الاخوة فى الله ، ولقد ترتب على الاخوة الدينية أمران : التعاون والتضامن الاجتماعى ٠

٨ ــ التعاون

ولست أعرف دينا جاء يدعو للتعاون بين أفراد الانسانية مثل ما دعا كتاب الاسلام : « وتعاونوا على البر والتقوى (المائدة ٢) » ولقد عدل الاسلام فكرة التعاون التى سادت فى الجاهلية وتعذب بها المجتمع فى عصور الجهل والظلام حتى جاء الرسول ليفسر التعاون بمعناه السليم ثم نزل القرآن ليؤيد رسوله فى تصحيح الفكرة الجاهلية « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » ففسر الرسول نصر الظالم برده عن ظلمه وقال القرآن « ولا تعاونوا على الاثم والعدوان (المائدة ٢) » ولا غرو فالله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ٠

٩ ــ التضامن الاجتماعى :

وكما اقتضت أخوة الاسلام التعاون فانها تقتضى أيضا ايمان المسلمين بمسئولية بعضهم عن بعض فكل مؤمن « حامل لتبعات أخيه ومحمول بتبعاته على أخيه فاذا ما أحسن فى حمل المسئولية كان احسانه لنفسه ولأخيه وان أساء كانت اساءته على نفسه وعلى أخيه »

□

والى غير ذلك دعا القرآن الى كثير من الآداب والقيم التى

تكفل التماسك وتضمن المحبة بين الناس ·

فنراه مثلا ينهى الفرد عن أن يسخر من أخيه « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب (الحجرات ١١) » ·

كذلك يدعو الانسان الى أن يكون اجتماعيــا الى أبعد حــد يختار الاصدقاء ويجمع حوله أكبر عدد من المؤمنين حتى تتحقق غاية التعارف بين الأمم والشعو بتلك الغايــة التى من أجلهــا قسم العالم الى قبائل وأمم « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا (الحجرات ١٣) » ·

كما أهاب بالمسلمين جميعا أن يكونوا عصبة متماسكة قواهم متحدة قلوبهم ، يعينوا الضعيف ويفرجوا كرب المكروب ويغيثوا الملهوف ويقطعوا كل أسباب التنافر والخصام فى هذه الحياة حتى يسعد المجتمع الاسلامى وتنجح الأمة التى وصفها الله صادقا فى كتابه الكريم « كنتم خير أمــة أخـــرجت للناس (آل عمران) ١١٠) » ·

١٢- احترام الانسان :-

فرض الله على الانسان احترام أخيه الانسان ، فلا يهزأ به ولا يسخر منه ولا يحقره ، ذلك لأنه مثله في كافة الحقوق والواجبات التى شرع الله لا فضل لانسان على انسان الا بالتقوى « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (الحجرات ١١) » ٠

كما فرض القرآن عدة آداب اجتماعية تحوم كلها حول احترام الانسان والنهى عن الظن فيه بالسوء أو اغتيابه والنم عليه « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ، ان الله تواب رحيم (الحجرات ١٢) » ٠

ولقد رسم القرآن حقوقا فرضها للانسان ، وأوجب على كل الناس احترامها وتقديرها ، لأن احترام الانسان لحقوق أخيه الانسان احترام لنفسه ولحقوقه فى الواقع ونفس الأمر ٠

وبمناسبة حقوق الانسان ينبغى أن نوضح ما للقرآن من حكمة وسبق فى هذه الحقوق ٠

ولقد قالوا ان أول اعلان لحقوق الانسان كان فى القرن الثامن عشر بعد الثورة الفرنسية وأكدته هيئة الأمم المتحدة فى اعلانها

هذه الحقوق في ديسمبر سنة ١٩٤٨ ٠

وكذبوا ، فالقرآن الكريم سبق ثورة انجلترا ١٢١٥ واعلان يوليه ١٧٧٦ فى أمريكا ، وثورة فرنسا فى القرن الثامن عشر ٠

سبق القرآن العالم كله بأربعة عشر قرنا فى تقرير حقــوق الانسان وكان الفارق بينه وبين هذا العالم ــ على حد تعبير الأستاذ عبد الرزاق نوفل ــ الفرق بين المصدرين فى كل منهما بين السماء والأرض ٠

فلقد قرر القرآن كرامة الانسان من حيث هو آدمى « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (الاسراء ٧٠) » ٠

والقرآن من حيث الآية المذكورة صان كرامة الفرد أيا كان جنسه أو لونه أو دينه ومركزه ٠

كما كان بها أول دعوة للمساواة كحق من حقوق الانسان فلا طبقية أو فوارق عنصرية « يايها الناس انا خلقنــاكم من ذكر وأنثي ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير (الحجرات ١٣) » فسوى بين الناس والغي كل تمييز بينهم لأى سبب من الأسباب ٠

ولقد قرر القرآن للانسان حق الحياة « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحــق (الاسراء ٣٣) » ٠ وقرر الدفــاع عن النفس لحفظ هذه الحياة والحرص عليها « من قتــل دون نفسه فهو شهيد » ٠ وحرم القتل الا للولي وفى القصاص « ولكم في القصاص حياة (البقرة ١٧٩) » ٠ وحرم الانتحار لأى سبب

كان ، فالحياة هبة من الله ، فهو وحـــده الذى يهبها من يشـــاء وينزعها ممن يشاء « ولا تقتلوا أنفســـكم ، ان الله كان بـــكم رحيما (النساء ٢٩) » وحتى المخاطرة بالنفس أمر نفر منه القرآن ونهى عنه « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة (البقرة ١٩٥) » ٠

ولكن تكون هذه الحياة حياة حقيقية كفل القرآن الحريـــة للانسان فلا حياة مع العبودية ٠

وقد عمد القرآن فى صـــدر الاسلام الى أن يضيق مـــن دائرة الرق التى كانت سائدة منتشرة ، لا تحد بحدود ، ولا تتقيد بقيود ، فرغب السادة فى العتق « والله يحب المحسنين (آل عمران ١٣٤) » ٠

كما فرض كثيرا من الكفارات من عتق الرقبة « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله ، الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله ، وتحرير رقبة مؤمنـــة (النســـاء ٩٢) » ٠ « لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفـــارته اطعام عشرة مســـاكين من أوســـط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة (المائدة ٨٩) » ٠

« والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملو خبير (المجادلة

٣) » ٠ « ثـلاث جدهن جـد وهزلهن جد : الطلاق والعتـاق والنكاح » ٠

وبتشريعات القرآن حصر الـرق فى اسرى الحرب مـع الكافرين كعاملة بالمث لفاذا اشفت هذه العلة ــ المعاملة بالمثل ــ فان القرآن وتشريعه أو لمن يعمل بمنع الرق ٠

ومن أجل هذا قدست الحرية فى القرآن فى أوسع معانيها فى العقيدة الدينية « لا اكراه فى الدين (البقرة ٢٥٦) » ٠ « فذكر انما أنت مذكر ٠٠ لست عليهم بمسيطر (الغاشية ٢١ ، ٢٢) » ٠ « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر (الكهف ٢٩) » ٠ وفـى القول « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (آل عمران ١٠٤) » ٠ وفى السلوك « وكل انسان الزمناه طائره فى عنقـه (الاسراء ١٣) » ٠

وقرر الاخاء « انما المؤمنون أخـوة (الحجرات ١٠) » ٠ « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة (النساء ١) » ٠ « كلكم لآدم » ٠

كما قرر العدل فى الحكم بين الناس « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل (النساء ٥٨) » ٠ « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى (المائدة ٨) » وفى القول « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى (الانعـام ١٥٣) » ٠ « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله » ٠

ومن هذه الآيات يتضح للمنصفين أن القرآن هو أول تشريع

سبق الدنيا كلها وطلع عليها بما أسموه بعد حقــوق الانسان من الحرية والحياة والعدالة والمساواة والاخوة بين الناس •

ولقد كان القرآن بسبقه فى تقرير هذه الحقــوق أيام كانت آسيا وأوروبا غارقتين بدولتيهما الفرس والروم فى الحروب والمنازعات وكانت الجزيرة العربيــة راكعــة على ركبتيها أمام الأصنام والأحجار وكانت افريقيــا مرتعا للوحــوش وكواسر الغابات وكانت أمريكا وأوربا أيضا وراء بحر الظلمات ، حيث لم يكن يسكنهما الا صيادوا الأسماك •

كان بهذا السبق الخارق فى قمة الحكمة بل هو الحكمة ولا غرو فهو كتاب السماء وكتاب الأرض ، من اللــه الذى أحسن كــل شىء خلقه ثم هدى •

احترام المرأة ..

وهنا لست أدرى على أى أساس بنى المدعون دعـــواهم فى أن القرآن غمط حقوق المرأة وهضمها ومن أين أتوا بهذه المفتريـــــات ..

وان هذا ليضطرنى رغم رغبتى فى الايجاز أن استعرض موجزا لمحات من التاريخ القديم والحديث التى عانت المـــــرأة فيها الأمرين من الظلم والاستهتار والعسف والاضطهاد حتى ينكشف حقد الحاقدين على القرآن وعلى شريعة القرآن فـــلا يدعون أن المرأة مظلومة مستعبدة فيها وفيه .

ولو قلبنا صفحات التاريخ لألفينا الامم جميعا قـــد التقت عند استعباد المرأة واذلالها وان اختلفت فى طرق معاملتها التى تعبر عن هذا الاستعباد والاذلال فمن الامم من كانت تعتبرها من سقط المتاع لا يجوز لها أن تبدى رأيا خلاف رأى زوجها ولا تعمل عملا دون مشورته ، أو ترفض زوجا اختاره لها وليها أو يعطيها حظا من الميراث وتعلم من كان يتصرف فيها كما نتصرف نحن الآن فى المواشى بالبيع والهبة والاجارة والاعارة ومنهم من كان يقعد عن العمل ويكلفها مشقة السعى على رزقه ويركن هو على حسابها الى الراحة والبطالة والخمول وقد يكرهها أحيانا على الفسق واكتساب رزقه ورزقها عن طريق غير شريف .

ولقد روى التاريخ عددا لا يســــتطيع الباحث حصره من المساخر التى عاشت فيها المرأة فى القديم وفى الحديث .

منها ما كان منتشرا مثلا فى جزائر المركيز (بولينزيا) من اشتراك عدد من الازواج فى زوجة واحدة فى جميع الطبقات وحتى بين الاعيان والرؤساء كما كا نذلك أيضا فى سـيلان والتبت وكثير من الجزر المحصورة بينهما وفى عشائر التـودا بجنوب الهند وعشائر المازابيس والباهيما بأفريقيا ٠

ولقد أشارت السيدة عائشة رضى الله عنها الى شىء مـن ذلك عند بعض قبائل العرب فقالت (كان يجتمـع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة فيصيبونها) ٠

وقد عرف قدماء اليونان ، وقدمـاء العرب فى الجاهليـة ، والهنود وغيرهم هذا الاستهتار بالمرأة الذى أطلقوا عليه اسم « نكاح الاستبضاع وما هو الا نكاح الاستهتار والاستعباد ، وكان الرجل يعير زوجته لرجل عظيم حتى تأتى منه بولد عظيم حتى لقد أجاز مشرع أسبرطة الشهير (ليكورغـوس) هـذا النظـام ٠

وحتى الفيلسوف اليونانى العظيم (سقراط) ذلك الـذى وهب حياته ـ كما يقال ـ للفضـيلة والمعرفة أعار زوجتـه (جرانتيب) الى (اليسياب) دون ان يجد من ضميره وفضيلته ما يردعه عن مثل هذا العبث بمقدرات المرأة التى أشركها حياته ووهبها اسمه وعمره ٠

وأدهى من ذلك وأمر ، لاقـت المرأة من السخريـة واللعب بشرفها وكرامتها حتى وجدنا فى بعض المجتمعات أنه كان يجب فى عرفها أن يدخل على العروس ـ قبل أن تزف الى زوجها ـ

بعض رجال الدين أو السحرة أو ذووا السلطان أو طائفة من اقرباء الزوج أو الزوجة أو من ضيوف العرس أو من غير هؤلاء وهؤلاء ٠

وقد جرت العادة قديما فى (مالابار) بالهند أن تقضى عروس الملك بعد أن يتم عقد زواجها به الليالى الثلاث الاولى مع كبير رجال الدين وبعد انقضاء هذه المدة كان الملك يمنحه خمسين قطعة من الذهب مكافأة له ٠

وذكر الرحالة الطليانى (ماركو بولو) ـ ١٢٥٤ ـ ١٣٢٣ م ـ أن من عادات سكان (الكوشنشين) بالهند الصينية أنه لا يجوز لعروس أن تزف الى زوجها الا بعد ان تعرض على الملك ويتصل بها اذا شاء فأى سخرية بعد هذه السخرية ؟ وأى عبث بالمرأة بعد هذا العبث ؟

حتى فرنسا أمة الحضارة والنور فى القرن السادس وفى سنة ٥٨٦ م أى قبل أن يشع على العالم نور الاسلام وقبل أن يسرق الغرب حضارة الاسلام وتعاليمه عقد اجتماع هام لبحث موضوع خطير وكان الموضوع : هل المرأة أنسان أو غير أنسان ؟

وبعد أخذ ورد وجدال عنيف بين المجتمعين سمحوا للمرأة شيئا ما وقرروا أنها انسان ولكنها خلقت لتخدم الرجل ٠ ٠ فهى انسان ولكنها خادم ٠ ولما كانت المرأة لا تعدو الا ان تكون خادما فى نظر الحضارة الاوربية فى القرن السادس فقد جاء فى القانون الفرنسى أن (المرأة ليست أهلا للتعاقد دون

رضا زوجها واجازته) كما جاء فى القانون الرومانى (ان المرأة ليست أهلا للتصرف مدة حياتها كالطفل ويجب أن يوكل أمرها لرب الاسرة) فهى انسان خادم سفيه لا يعيش الا بين أسوار الحجـــرات .

□

لقد كان هذا بجانب موقف القرآن الذى أبـــاح للمرأة أن تتصرف فى ثروتها بما تشاء فتبيع وتشترى وتودع الامـــــوال فى المصارف والبنوك وتحفظ لنفسها بالمال والارباح وحتى أباح لها أن تتصرف فى مال زوجها نفسه بالمعروف فاذا مات الزوج كان لها نصيبها من الميراث فى تركته (ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولدفان كان لكم ولد فلهن الثمن ممـــــا تركتم (النساء ١٢) .

واكثر من هذا واجمل منه .

أوصى القرآن الرجل باحترام المرأة على أنها نصف المجتمع فهى مساوية له فى كافةالحقوق والواجبات فى حدود القـــدرة والطاقات .

ففى حق العمل يقول القرآن : « انى لا أضيع عمل عـــامل منكم من ذكر أو انثى (آل عمران ١٩٥) » .

وحتى نلتقى مع هـــذا الموضـــوع بشكل أوســـع فـــى الفصـــل القـــادم نحب أن نقول هنـــا فى سرعة الايجـــاز ان القرآن أعطى المـــرأة حق العمـــل اذا كان ضرورة لا بـــد منها لها للتامين ضد الجوع والخوف والا فالمرأة خلقت امـــا

وليس فى الحياة كلها من هو أقدر على وظيفة الأم من الانثى التى ركبت فيهـــا غرائز للعطف والحنــو والرقة والذكــاء حتى تستطيع أن تقوم بهذا الدور الطبيعى للخلاق فلا ينبغى اذن أن تحيد المرأة عن هذا الدور الا تحت ضغط ظروف تــرى نفسها فيها مهددة بالخوف أو الجوع ذلك هو حق العمل بالنسبة للمرأة فى القرآن الكريم ·

أما حق ابداء الرأى فى الانتخاب والمبايعة على الســـمع والطاعة والقيام بحدود الشريعة فحق مقدس مكفول للمرأة فى نظر القرآن كفالته للرجل على السواء ·

« يأيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على الا يشركــن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معــروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم (الممتحنة ١٢) » ·

وانى لأتذكر عند هذه الآية كيف قدم وفد من النســـوة يبايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعهن بما جاء فى هذه الآية ·· وكان على رأسهن ــ هند بنت عتبة ــ وبمثل ما رأينا من حرية وصراحة ناقش الرسول المرأة وبايعها ما لم يحدث ذلك فى اعظم الامم حضارة ومدنية ·

أما فى حق التعليم فلم ترد آية واحدة تحرم المرأة حقهــا فى التعليم بل العكس من ذلك شجع القرآن كل حركة تدعــو الى مساواة المرأة بالرجل فى التعليم وكان النبى صلى الله عليه وسلم نفسه يجلس الى النساء ويعلمهن أمور الدين والدنيــا ،

وقد روى فى الصحيح أن النساء اجتمعن مرة وقلن لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله : غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من لقاء نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن

ولقد ظهرت فى ظل الاسلام كثيرات من النسـوة اللائى اعترف الزمان بعلمهن وأدبهن •

فعائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنها كانت تقرأ المصحف وتعلم الكثير •

قال عنها عروة بن الزبير : « ما رأيت أحدا أعلم بطب ولا بشعر ولا بفقه من عائشة » •

ولا تزال أشعار الخنساء الشاعرة المسلمة ترن فى آذان التاريخ وتتصدر عيون الاشعار •

وسكينة بنت الحسين التى كانت أعلم أهل زمانها بالشـعر والأدب حتى كان الشعراء يجتمعون عندها فتنقدهم او تمدحهم ويخرجون فهذا صاحب الاغانى يروى لنا عن محمد بن سلام « أن جريرا والفرزدق وكثيرا وجميـلا ونصيبا ، اجتمعوا فى ضيافة سكينة بنت الحسين رضى الله عنه فمكثوا أياما ثم أذنت لهم فدخلوا عليها فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسـمع كلامهم ثم أخرجت وصيفة لها قد روت الاشـعار والاحاديث فقالت : أيكم الفرزدق ؟

فقال لها : هأنذا • قالت : أنت القائل :

همـا دلتانى من ثمـانين قامـة

كمـا انحط باز أقتم الريش كاسـره

فلما استوت رجـلاى بالارض قالتـــا

أحى يرجى ، أم قتيـــل نمـــــا ذره

فقلت ارفعوا الأمــراس لا يشـعروا بنـا

واقبلت فى أعجــاز ليـــل أبادره

أبادر بوابين قـــــد وكـــلا بنـا

واحمر من ســاج تبص بشـــامره !

قال : نعم .

قالت : فما دعاك الى افشاء سرها وسرك ؟ هلا سترت عليك وعليها ؟ خذ هذه الالف والحق بأهلك .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت برسالتها فقالت : أيكم جرير؟

قال : هأنذا . قالت : أنت القائل ؟

طرقتك صـــائدة القـــلوب وليس ذا

حـــين الزيارة فارجعى بســــلام

تجـرى السواك على أغـــر كأنــــه

برد تحــدّر من متــــون غمــــام

لــو كان عهــــدك كالذى حـــدثتنا

لوصـــلت ذاك وكـــان غـــير لمــــام

انى أواصـــل من أردت وصـــــاله

بحبـــال لا صـــلف ولا لــــــوام

قال : نعم .

قالت : أولا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيف وفيك ضعف . خذ هذه الالف والحق بأهلك .

ثم دخلت الى مولاتها وخرجت فقالت : أيكم كثير ؟ قـال : هانذا ٠ قالت : أنت القائل ؟

واعجبنى ياعز منـك خـلائق
كرام اذا عـد الخـلائق أربـع
دنوك حتى يـدفع الجاهل الصبا
ودفعك أسباب المنى حين يطمـع
فوالله ما يـدرى كـريم مماطل
أينسـاك اذ باعـدت أو يتصـدع

قال : نعم ٠ قالت : ملحت وشكلت خذ هذه الثلاثة آلاف والحق بأهلك ٠

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم نصيب ؟ قال: هانذا فقالت : أنت القائل ؟

ولـولا أن يقـال : صـبا نصـيب
لقلت : بنفسى النشـا الصـغار
بنفسى كل مهضـوم حشـاها
اذا ظلمت فليس لهـا انتصـار

فقال : نعم ٠

فقالت : ربيتنا صغارا ومدحتنا كبارا ٠ خذ هذه الالف والحق بأهلك ٠

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل ٠ مـولاتى تقرئك السلام وتقول لك : والله ما زالت مشتاقة لرؤيتـك منذ سمعت قولك :

الا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بوادى القرى انى اذا لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل بينهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء خذ هذه الالف دينار والحق بأهلك ٠

وهكذا يجتمع أمراء الشعر فى عصرها فتنقدهم وتجيزهم وهى فى مركزها العلمى فى البيئة الاسلامية وهذا الفوق البالغ فى النقد الأدبى لدى سكينة يدل على ما كانت تتمتع به المرأة فى صدر الاسلام من كل فرص العلم تماما كالرجل ٠

وصدق رسوله الله : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ٠

حتى عندما يتكلم القرآن عن الحدود والقصاص لا يفرق بين امرأة ورجل بل يعبر بالنفس عنهما لتتحقق المساواة الكاملة التى لا تقر فضل رجل على امرأة بل الكل سواء أمام القانون « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس (المائدة ٤٥) » ٠

ولولا رغبة فى الايجاز لأتيت على كل الحقوق الانسانية وأعلنت فيها رأى القرآن بالمساواة فيها بين الرجل والمرأة وبحسبى هذه الآية الجامعة فى هذا الموضوع « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف (البقرة ٢٢٨) » أى بما يعرف من عادات وتقاليد الناس ــ كما يقول بعض المفسرين ــ ٠

أما ما قد يشكل عند بعض الاذهان من قوله تعالى « وللرجال عليهن درجة (البقرة ٢٢٨) » فهى درجة القوامة والزيادة على

المرأة وهى درجة تحتمها طبيعة المرأة وطاقتها الجسدية تلـــك الطاقة التى من أجلها كان « الرجال قوامون على النساء (النساء ٣٤) » •

ولئن كان القرآن قد جعل ميراث المرأة على النصف من ميراث الرجل « للذكر مثل حظ الانثيين (النساء ١٧٦) » فــذلك لان النفقة على الرجل وكذلك السكنى والملبس وسائر مستلزمــات الحياة التى يتطلبها الرجل والمرأة اذا ما اجتمعا فى بيت ، وليس السهم الذى يأخذه منها الرجل ببالغ ما بلغ قدر ما يدفع لها من تكاليف وما يتحمل عنها من أعباء •

وكذلك أمر الشهادة « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكــونا رجلين فرجل وامرأتــان ممن ترضون من الشــهداء (البقرة ٢٨٢) » فكما منعها من حق الشهادة فى قضايا القتــل والجرائم الشنيعة التى لا تتحملها عاطفتها الرقيقة فقد اختصها بالشهادة التى تقع فى محيط علمها ودائرة اطلاعها كالشهادة فى أمور الولادة والرضاع وما يشبههما مع انه أشركها بعد ذلــك بالنصف من شهادة الرجل فى الحقوق العامة التى تتطلب مزيدا من المعرفة بأمور الحياة مالا يتوفر لها كما يتوفر للرجل وهــى تقضى أغلب اوقاتها فى البيت حيث مهمتها الاقدس فى تربيــة المستقبل وابنائه •

□

وهكذا نرى القرآن لم يشرع حكما واحدا يقيد فيه من حرية المرأة الا بالقيود الطبيعية التى تتفق وتكوينها الطبيعى وطاقتها

المحدودة ولم يشرع الا ما يراد به صون كرامتها وحفظ سمعتها وشرفها ومساواة تقدر الطاقات الطبيعية لكل انسان لهى المساواة الحقة الحكيمة الجديرة بأن تخلد على مر الزمن ٠

ومساواة لا تقدر هذه الطاقة لهى خداع للبشر وتضليل للانسان وصدق رسول الله « رحم الله أمرأ عرف قدر نفسه » فاعرفى قدرك يا حواء واعرفى ما منحه القرآن لك على حدود هذا القدر تعرفين سبيل الخير وطريق النجاح لك ولمجتمعك ولأمتك الاسلامية فى كل أنحاء الأرض ٠

□

١٤ — المراة والقضاء

هو جانب من عناية القرآن والاسلام بالمراة ولكنى أفردته بالبحث لما ثار حوله من جدال بين المفكرين ورجال الدين •

ذلك أن المرأة فى بلادنا تتطلع دائما الى تقليد المراة الاجنبية فى كل شىء دون نظر الى الفساد الخلقى والاجتماعى الـــذى يجتاح الحياة هناك وان الرغبة فى التقليد لتتحول عند المـــرأة المسلمة الى جنون عاصف طموح فى ان يمتد هذا التقليد لتولى مركز الوزارة والقضاء والرغبة فيه •

وما أن ظهرت على الملأ هذه الرغبة فى هذا المنصب الاخير حتى ثارت من حولها سحب كثيفة من التساؤل القلق الحائر هل تصلح المرأة لتولى منصب القضـــاء وهل يجيز لها الدين ذلـــك المنصب •

وعند هذه النقطة اختلفت الأنظار وتنوعت الاتجاهات •

فذوات الرأى من النساء قد جمعتهن الحزبية — على ما أظن — على مبدأ واحد فالتقين جميعا عنده وطالبن بالمنصب محتجات بأن المرأة مستوفية لجميع الشروط التى يتطلبها القانون من حيث الثقافة والسمعة وانها تولت القضاء ناجحة فيه فى أغلب دول العالم فى تركيا وفى فرنسا وبأن السيدة سكينة تولت القضاء فى صدر الاسلام •

أما ما يقال من أنه فى عاطفتهن من الرقة والحساسيـــة ما يمنعهن من ذلك فحجة واهية — فى نظـــرهن — لايعوقهن عـــن

التحقيق والفصل فى الخصومات ٠

أما الرجال فقد تعددت انظارهم كذلك فى الموضوع ٠

فمنهم من يرى أن منصب القضاء لا يصل اليه صاحبه الا بعد جهاد قد يمتد الى عشر سنوات فى سلك العمل النيابى يتصل أثناءها بشتى أنواع المجرمين ومختلف القضايا الوحشية فى الريف وغيره وقد يتعين القيام الى محل الجريمة فى ظلام الريف ووعورته فى أواخر الليل وقد يكون الجو صقيعا ممطرا أو تكون الجريمة متصلة بهتك عرض أو جرح عفة ما قد يجعل تحقيق المرأة ناقصا وحكمها مهزوزا لا تستقيم معه العدالة ولا ينهض الانصاف (١) ومن كل هذا يتضح فى نظر هذا الفريق أن المرأة لا تصلح لشىء من القضاء ٠٠

ومنهم من يرى صلاحية المرأة للقضاء فى الأحوال الشخصية وفى قضايا الأحداث وقضايا المعاملات دون القضاء الجنائى ويرى جواز تولى المرأة القضاء فى هذه الأنواع خاصة وبنسبة معينة على أن تشترط فى المرأة العدالة وغيرها مما يضمن صحة القضاء (٢) هذا ولم أقف على رأى واحد لمفكرينا المعاصرين يجيز صاحبه فيه تولى المرأة منصب القضاء بجميع أنواعه وخاصة القضاء الجنائى بالذات ٠

ولعله من حسن الحظ أن نجد أن هذه المسألة قديمة بحيث تعددت فيها آراء الفقهاء القدامى من رجال الدين نفس تعدد آراء المحدثين منهم الى ثلاثة اتجاهات ٠

---

(١) من رأى للمستشار على منصور فى منبر الاسلام عدد ٢ س ٢١

(٢) رأى للمستشار عبد الجليل الشافعى للعدد نفسه ٠

ولقد كان الأصل الذى أختلفوا حوله فى هذه المسألة حديث « لن يفلح قوم ولوا أمورهم امرأة » الذى قاله النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن الفرس ملكوا عليهم ابنة كسرى فاختلف المجتهدون من الفقهاء فى المراد من الولاية فى الحديث هل هى الولاية العامة التى تشمل ولاية الملك وولاية القضاء أم خاصة لا تشمل الا الامامة العظمى للمسلمين ..

ومن هنا كانت أقوال هؤلاء المجتهدين على ثلاثة أنحاء .

١ ـ فجمهور الفقهاء لا يجيزون تولى المرأة منصب القضاء محتجين بهذا الحديث اذ يعتقدون ان الولاية المقصودة فيه هى الولاية العامة ولاية الملك والقضاء .

٢ ـ أما ابن جرير الطبرى فيرى أن المرأة ليست بأقل من الرجل عقلا ولا أنقص منه تفكيرا اذ هما فى العقل والتفكير على قدم المساواة كما يرى أن الولاية المقصودة فى حديث « لن يفلح قوم ولوا أمورهم امرأة » انما هى ولاية الملك بالذات دون ولاية القضاء وعليه يقول ابن جرير بجواز تولى المرأة منصب القضاء فى كل شىء حتى الجنايات .

٣ ـ أما الحنفية فقد سلكوا طريقا وسطا لا الى الجمهور ولا الى ابن جرير فأجازوا تولى المرأة فى غير الجنايات ورأوا أن القضاء فى الاحوال الشخصية والاحداث والمعاملات هو الذى يلائم طبيعة المرأة ويتمشى مع واقعها مريدين الولاية الخاصة فى الحديث ..

ولعل الرأى الحق فى هذه المسألة أو هذا المشتبك من الآراء

ما ذهب اليه الاستاذ الشيخ محمد فرج السنهورى من أن المسألة اجتهادية يرجع فى الأخذ بأحد آرائها الى المصلحة العامة فى كل عصر « فاذا كانت الاعتبارات المختلفة التى تحيط بالمرأة لا تمنع من توليها القضاء فلا حرج فى ذلك ، وان كان لهذه الاعتبارات قيمتها ووجودها مانعة من توليها القضاء فلهم فى هذا الكثرة الغالبة التى يعتدون بها ٠

فالمسئولية الدينية فى هذا تقع على أولياء الأمور الذين يجب عليهم دينيا أن يعملوا على تحقيق ما فيه مصلحة الرعية وكل راع مسئول عن رعيته » ٠

وما دمنا فى عصر تتسابق فيه الحضارات ونعمل فيه جاهدين على ابراز حضارة الاسلام فيمكن أن نعطى المرأة منصب القضاء فى غير الجنايات وفى الأحوال الشخصية خاصة على أن نعين لها مساعدة من جنسها وبذلك نكون قد وافقنا طبيعة المرأة فى البعد بها وبعاطفتها عن الحكم الذى قد يهتز ويرتجف أمام جريمة من جرائم القتل وسفك الدماء ووفرنا لها الراحة من العمل الشاق الذى قد يشق عليها بمشاركتها فى العمل مساعدة لها ٠

وأيضا نكون فى الوقت نفسه قد وجدنا من ديننا ما يوجه التيار الحضارى المعاصر ما دام فى حدود الاسلام الى مصلحتنا لنعلن على العالم من جديد بالعمل لا بالقول وحده مرونة هذا الدين الذى نزل من السماء للعالم أجمعين فى كل وقت وحين ٠

هذا اذا كانت المصلحة تقتضى قاضيا من النساء ٠

عمـــل المرأة

عندما تحدث القرآن عن العمل كحق للانسان لم يفرق بين الرجل والمرأة « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينـــه حياة طيبة (النحل ٩٧) » •

وعندما تحدث عن الحرية كحق للانسان ايضا بيـــن انها لا يمكن أن تتحقق الا بتحرير لقمة العيش ، فاذا لم تتحرر لقمـــة العيش فلن يتحرر الفرد من الخوف والحاجة « لايـــلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الـــذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (سورة قريش) » •

ولما كانت المرأة انسانا فقد أعطاها القرآن حق الحرية وسعى الى تأمينها ضد الخوف والحاجة فمتى كان العمل بالنسبة لهمـــا ضرورة من ضرورات التأمين ضد الخوف والحاجة أو بعبـــــارة أخرى اذا با تالعمل ضرورة لحرية المرأة فان القرآن يبيح لها العمل على هذا الأساس •

ولقد قرأت فى هذا المجال رأيين مختلفين :

● رأى منهما يمنع عمل المرأة لأنها خلقت أما ولأن فى عملها ثغرة للاختلاط وفرصة للفساد •

● والرأى الآخر يبيح عمل المرأة محتجا ببعض حالات تعول فيها نفسها أو أسرة لها وفى منعها من العمل ظلم ودفع لها الى الانحراف والجريمة •

ولا يطول بنا التفكير حتى نرى الرأيين يلتقيان •

● أما كون المرأة خلقت أما فهذا صحيح وكون عملها خارج البيت مباءة للفساد وخاصة فساد الأسرة وانحلالها صحيح أيضا ولكن لذا فقدت عائلها وهددتها البطالة والفاقة فماذا تفعل ؟

أتحتجب فى البيت حينئذ حرصا على الأولاد وعلى أخلاقهم ومستقبلهم ؟

ولكن أى أولاد وأى أخلاق وأى مستقبل فى مثل هـذه الظروف وقد ضرب الحرمان أطنابه السود وهم بهم ليدفعهم لقمة سائغة للموت والضياع ٠

ان الفقر وحده هو الذى يدفع الى الجريمة وهو الذى يميت الضمير ويقضى على الخلق ويضيع الحاضر والمستقبل معا ٠

وعلى هذافاذا كان وجود المرأة فى البيتلجلب مصلحة يستفيد منها البيت والأسرة والأطفال فان العمل مـع ذلك يكون ضرورة لدفع الخطر عن أسرة هى أقرب الى الهاوية منها الى الحياة ودفع المفاسد مقدم على جلب المصالح فى الاسلام ٠

فلتذهب المرأة اذن الى مكتب العمل ٠٠ لكن ليكن معها تقرير اجتماعى يقرر حاجتها الضرورية الى العمل ٠

□

ولكن اذا كان العمل بهذه المثابة فأى عمـل يبيحـه القرآن للمرأة ؟

ان العمل فى المراقص وغيرها من دور اللهو والعبث عمـل لا يرضاه القرآن للمرأة المسلمة التى تقدس الفضيلة قبل المـادة وتمجد الأخلاق قبل الثروة فليكن عملها اذن فى حدود الدين ودائرة الخلق حتى لا تجنى على الدين ولا تقضى على الخلق ٠

والى المتعطشات الى العمل دون حاجة أو ضرورة ·

ان عمل المرأة داخل بيتها لا يقل قيمة عن عملها خارج هـذا البيت ، فانها حين تنشىء رجلا فاضلا أو أما مثالية فانما تكون قد أدت لأمتها عملا لا يعدله عمل آخر والقرآن حين يفتح مجال العمل الشريف النزيه أمام المرأة فانه لا يفعل ذلك على حساب الأسرة التى يجب أن تبقى حية قوية ليكون المجتمع كله حيا قويا ·

١٥- القرآن والعلم . ،

ترددت فى الغرب وحملتها رياح عكسية مشئومة تلك الدعوى التى تقول ان هناك تعارضا قائم بين الدين والعلم ٠

ولئن صدقت الدعوى بالنسبة لما سبق الاسلام من سلوك القساوسة والكهان والمهيمنين على الأديان فلا يمكن بأى حال أن تصدق بالنسبة للاسلام ٠

ذلك لأن الاسلام ـ كما يقول الشيخ محمد محمد المدنى ـ قد جاء للناس بالحقائق فلا يخشى الأداة الكاشفة عن الحقائق وهى العلم ، بخلاف ما تقدمه من أديان زيفها أهلها حتى تاهت منهم الحقيقة وسط ما زيفوه وشوهوه ٠

ولكن الاسلام ولم يمض عليه غير قليل على هذه الأرض حتى نادى نبيه عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وجاء فى قرآنه « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (المجادلة ١١) » « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (الزمر ١٠) » ٠

بل اننا لنرى القرآن وقد اعتمد أول ما اعتمد فى اثبات أولى دعائم دينه ـ التوحيد ـ على العقل « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (الأنبياء ٢٢) » هذا العقل الذى أزاح القرآن عنه الأغلال وحطم من حوله القيود التى كبلته بها الكنيسة على مر العصور ، ورفع من شأنه « انما يتذكر أولوا الألباب (الزمر ١٠) »

على أنه ينبغى أن نوضح أن للقرآن حينما يرفع من شأن العلم ويعلى من سلطان العقل ‥ انما يريد العقل الباحث المنصف المتحرر من الهوى والتعصب ، ويريد العلم كل العلم الذى يخدم كافة اغراض الحياة التى يتطلبها الانسان ٠

فليس القرآن يقصد الى العلم الدينى وحده كما يظن بعض السطحيين الأغرار والا كان استدلالا على صحة الدين بعلم هو مستمد من الدين ولكنه حينما يتحدث عن العلم انما يقصد الى العلم ـ كما قلت ـ بمعناه الواسع الشامل للبحوث النظرية والتجريبية والتحاليل العلمية الكيماوية وكل ما يدفع الى تقدم المجتمع ونهوضه ذلك لأن القرآن يهدف من وراء للعلم الى غرضين رئيسيين ٠

أولهما ‥ معرفة الحقيقة للعليا التى تكمن وراء كل حقيقة فى هذا الكون الفسيح والتى تديره بهذه الحكمة وهذا النظام ‥ الى معرفة الله معرفة تقوم على يقين العلم الذى لا تساوره الشكوك ولا تنال منه الأوهام ٠

ثانيهما ‥ لينتفع الانسان بما فى هذا الكون من نعم لا تعد ولا تحصى وليحسن استغلالها على أسس علمية صحيحة ((قل انظروا ماذا فى السموات والأرض (يونس ١٠١))) ٠

ولن يتحقق هذان الهدفان الا اذا كان الناظر دارسا للطبيعة وعلومها عالما بالكيمياء ونتائج تحاليلها والطب وخلاصة تجاربه ‥ وهكذا ٠

فالعالم بالطب مثلا المتمكن من اسراره الملم بدقائقه يدرك من

أسرار تكوين الجسم وعجائب تركيبه وغرائب أطواره ما يجعله يعترف بقدرة الله ويعنو لجلاله وعظمته ولن يتأتى ذلك للجاهل بهذا الفن ((وسخر لكم ما فى السموات ومـــا فى الأرض جميعا منه (الجاثية ١٣))) ولا يتم هذا التسخير عــلى حقيقتــه • الا اذا وضع الانسان العالم كله تحت فكره ونفذ من ظاهره الى سره واستخدم كل ما يصلح لخدمته فى توفير منافعه •

□

وينبغى الا ننهى الحديث عن احترام العلم فى القرآن قبل أن نقول أو نذكر بما بدأنا به بحثنا من ان القرآن رسم العلاقة بين الله والانسان أساسا لعلاقة الناس بعضهم بالبعض هؤلاء الذين سوى بينهم فى كافة الحقوق والواجبات غرس الايمـــان عقيدة راسخة وأهاب بنا بمقتضى هذه العقيدة ألا نستخدم العلم الا فيما ينفع الانسانية والعلم فى نظر القرآن وسيلة رخاء وتقدم وسبيل تعمير وانشاء لا وسيلة تخريب وتدمير والى هذا يشير بقولـــه الكريم ((انمايخشى الله من عباده العلماء (فاطر ٢٨))) فالعلماء فى نظر القرآن احق بخشية الله وأولى بالخوف منه واجلالـــه ومراقبته فيما ينفع الناس •

□

وليس معنى تخلف المســلمين فى مجــال العلوم لمجموعة الظروف الزمنية أن القرآن يثبط من همة المسلمين ويقلل مـــن عزيمتهم فى تحصيل العلوم أو ان هناك عداء بين العلم والقرآن كما قالوا جاهلين أو متجاهلين فان القرآن بقدر مـــا هو كتاب دين فهو كتاب علم •

١٦- القرآن والســلام ..

منذ « سقراط » أبى الفلاسفة الذى كان يدعو الى نصرة أثينا ويشجع على قيام الحروب فى سبيل عزة هذه المدينة وقوتها •

ومنذ تلميذه « افلاطون » الذى كان يعتز بيونانيته ، ويدعو الى سحق البرابرة ممن هم لا يتمتعون بالجنســية اليونــانية وتلميذه « أرسطو » الذى كان هو الآخر يرافق تلميذه الاسكندر الأكبر فى حروبه ويشجعه على مواصلة هذه الحروب ويقدم له من عقله وفكره أسباب النصر وعوامل الغلبة ومنذ أيام الفرس والرومان الذين كانوا فى نزاع مستمر لاتكاد الحرب بينهم تضع اوزارها الا لتشتعل من جديد قوية حامية تأكل الأخضر واليابس وتدمر الحياة •

منذ هؤلاء جميعا لم يكن العالم ليعرف عن الســلام الا أنه استسلام لا يقبله المحارب الا على سبيل المناورة والمكر بالعدو والتجهز لحرب يستعد لها كل الاستعداد •

ولقد نزل القرآن فى بيئة كان مصدر الرزق لأهلها من وراء الحروب والمنازعات القبلية التى لم تكن لتهدأ حتى تشب ولم تكن الدنيا كلها لتعرف عن السلام شيئا الا خديعة ومناورة •

فلما جاءالا قرآن أرسى قواعد السلام فى المنطقة العربيــة ومنها انطلق الاشعاع الى العالم كله ونعم الناس بنعمة السلام فى ظل القرآن •

ولقد فصل القرآن السلام وقسمه الى •

١ ــ سلام بين الأفراد داخل المجتمع الواحد •

٢ ـ سلام بين الدول والمجتمعات ٠

ففى مجال المجتمع الواحد دعا الأفراد جميعا « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة (البقرة ٢٠٨) » وحسبنا فى هذه العجالة تمجيد القرآن للسلام حتى اشتقت منه تسمية الدين بالاسلام وجعلت تحية الأفراد بعضهم البعض بالسلام و « تحيتهم فيها سلام ويونس ١٠ » ٠

وفى مجال السلام بين الدول والمجتمعات قال لنبيه « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله (الانفال ٦١) » « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ٠ انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون (الممتحنة ٨ ، ٩) » ٠

ولقد أمر القرآن باحترام السلام وتقديس العهود والمواثيق وعدم نقضها ، أو أتخاذها مناورة للاستعداد من جديد وحرم الاعتداء على النفس والمال « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا عليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ٠٠ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة اركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا (النساء ٩٠ ـ ٩١) » « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام

حتى يقاتلوكم فيه (البقرة ١٩١) » « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة » النساء ٩٤ » « وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق (الانفال ٧٢) » « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم (النحل ٩١) » ٠

□

هــذا ٠٠ ولا ينبغى أن يفهم أن الســلام فى القرآن يعنى الضعف والاستسلام بل ان القرآن الذى أمر بعــدم الاعتداء واحترام السلام هو نفســه الذى أمر بسحق العــدو حين يبدأ بالعدوان « فان قاتلوكم فاقتلوهم (البقرة ١٩١) » «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا عــلى الظالمين (البقرة ١٩٣) » « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم (البقرة ١٩٤) « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون ٠٠ فاما تثقفنهم فى الحــرب فشرد منهم من خلفهم لعلهم يذكرون ٠٠ واما تخافن من قــوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين (الانفــال ٥٦ ـــ ٥٨ » ٠

بل أمر بالأخذ بأسباب القوة والتجهز للعدو فى أيام السلم حتى يتمكن المسلمــون من قهر أعــدائهم اذا ما شــبت الحرب وليعيشوا اعزة مهابين ترهبهم قوى البغى والظلم « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء

فى سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون (الانفـال ٦٠) »
« يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون •• الآن خفف اللـه عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مـائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين (الانفـال ٦٥ ـ ٦٦) » •

كما أوصى القرآن المسلمين بالثبات عند اللقاء وعدم التفرق والفرار عند التحام القوى واشتباك السيوف الى جانب ما سبق فى رفع الروح المعنوية للجنود واشـعارهم دائمـا بأنهم انما يقاتلون فى سبيل الحق ومن أجل العقيدة الصادقة فهم اذا عاشوا فانما يعيشون أبطالا بعد أن حموا العقيدة الحق وان ماتوا فانهم أحياء فى جنة عدن عند ربهم يرزقون •

« يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتـوا واذكروا اللـه كثيرا لعلكم تفلحون •• واطيعوا الله ورسولـه ولا تنازعـوا فتفشلـوا وتـذهب ريحـكم واصـبروا ان اللـه مـع الصابرين •• (الانفال ٤٥ ـ ٤٦) » •

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون •• فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقـوا بهم مـن خلفهم ألا خـوف عليهـم ولا هم يحزنون •• يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع اجر المؤمنين (آل عمران ١٦٩ ـ ١٧١) •

وهكذا جعل القرآن الاسلام دين القوة ودين السلام •

القرآن والصحة :

وقف القرآن أمام أدواء المجتمع الثلاثة : فعالج الجهل بالعلم وداوى الفقر بكثير من التشريعات المادية الحكيمة التى عرضناها فى هذا البحث وبقى موقف القرآن من الصحة والمرض ٠

ولما كان الواقع أن صحة الافراد صحة للمجتمع وقدرة على الكسب والانتاج ومرضهم تعطيل لقوى العمل وفتح ثغرة للفقر والضعف والانهيار ٠ فقد عالج القـــرآن كثيرا من الأمـــراض بارشادات طبية قرآنية غاية فى البساطة والبراعة وقد فاضت بمثلها سنة الرسول الكريم ٠

ولقد جمع القرآن الطب كله فى كلمة واحدة « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا (الاعراف ٣١) » فعدم الاسراف فى الطعام والشراب والامر بتجنبه هو مغزى الطب بنوعيه الوقاية والعلاج كما كانت مثلها كلمة الرسول عليه الصلاة والسلام « المعدة بيت الـــداء ورأس الدواء » ٠

هذا وقد شرع القرآن والرسول كثيرا من التشريعات الحكيمة التى تحفظ للانسان صحته وتبقى عليه حياته وتقيه شر الادواء والأمراض ٠

من هذه التشريعات :

اباحة الفطر للمسافر حفظا لصحته ورحمة به حتى لا تجتمع شقة السفر على عذاب الصيام ٠

واباحة تأجيل الصوم للمريض الذى يخشى على صحته من الصيام ٠

واباحة الفطر للمرضع اذا خافت الضعف وخشيت المـرض « ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيـام أخر (البقـرة ١٨٥) » ٠

حتى الصلاة التى لا تكلف الفرد مجهودا يخشاه أباح قصرها عند السفر « واذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جنـاح أن تقصروا من الصلاة (النساء ١٠١) كما أباح التيمم لمن يخشى على نفسه المرض أو البرد « فلم تجـدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا (المـائدة ٦) » ٠٠

كما حرم القرآن المعاشرة الزوجية الجنسية فى خـلال فترة العادة الشهرية « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلـوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهـرن فاذا تطهـرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان اللـه يحب التوابين ويحـب المتطهرين (البقرة ٢٢٢) » مما لم يدع شكا لباحث ــ وخصوصا بعدما عرف العلم الحديث خطر هذه المعاشرة فى هذه الفترة على كل من الرجل والمرأة ــ أقول لم يدع هذا شكا فى أن القرآن قد بلغ بحكمته حدا لا يملك العقل معه الا الايمان ٠

كذلك جاء القرآن بنظرية « العزل الصحى » قبل أربعة عشر قرنا من اليوم حتى قال الرسول : « اذا سمعتم الطاعون بأرض قوم فلا تدخلوها واذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها » ٠

بل ان الوقاية التى حددها الاطباء فى هذا العصر من مرض البهارسيا والانكلستوما التى تبلغ نسبة توطنه ٩٠٪ لا تخرج عن الطرق الوقائية التى حددها الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز فى الموارد ، وقارعة الطريـــق والظل » ٠

وبعد ٠٠ فلم يكن القرآن كتاب دين فقط ٠٠ انما كان كتاب دين وعلم وكتاب طب وحياة ٠ لأن الدين نفسه دين ودنيا ٠

تنظيم النسل :

قديمة جدا تلك المسألة ، وما زال تحية تشغل أفكار الباحثين وتقض مضجع المتخصصين ، وسأتناولها فقط من زاوية الديــن ولن أطيل •

وفى الواقع أن رأى الدين هنا يختلف باختلاف الوسائل التى تؤدى الى التنظيم والغايات التى تدفع اليه وكذلك باختـــلاف الحاجات فى شتى أنحاء العالم الاسلامى ودوله ذات الظــروف المختلفة •

فاذا ما سمت الوسيلة عن مستوى الجريمة التى حظرهــا الدين كالاجهاض بعد نفخ الروح فى الجنين ، •

واذا ما تخوف الفرد الضرر أو الحرج أو خشى الوقوع فى الأزمة •

أو كانت هنــاك ضرورة فردية أو اجتماعيــة تحتم تنظيم النسل ، فلا مانع منه لأنه « لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام » و « ما جعل عليكم الدين من حرج الحج ٧٨ » • روى عن جــابر رضى الله عنه (كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليــه وسلم) •

كما تضمنت كتب الفقه الاسلامى جــواز أن يعزل الرجل عن أمته بغير اذنها وعن زوجته باذنها مما يقرر اباحة تنظيم النسل بالشروط التى ذكرناها فما دامت الوسيلة شريفــة ، وما دامت الضرورة تدفع اليها ، كضرورة الحرج ، أو الصحة فان الانسال مباح وتنظيم المباح مباح •

مشكلة التسول :

حين أمر القرآن المسلمين بالانفاق فى سبيل الله لم يكن ليقصد اخراج الغنى أى مال يدفعه لغيره أيا كان هذا الغير انما قصد الى الاتفاق الذى يتحقق به التضامن المادى والاجتماعى ٠

ومع أن القرآن بين مصارف الانفاق فى سبيل الله فقد ظهر فى مجتمعنا أناس ألفوا التعطل واستمرأوا البطالة ، ووجدوا فى قلوب الناس متسعا لتعاميهم وتعارجهم وتمارضهم فسدوا عليهم الطرق وأوصدوا دونهم المنافذ حتى أبرزوا صورة للمجتمع يغار منها المسلم الحق ، ويتضرر بها المؤمن الكامل ويشنع بها السائح الزائر ٠

على أن هناك من تعوزه الحاجة وتضنيه الضرورة ولكنه يأنف من مذلة السؤال وكشف الحال « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعنف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا (البقرة ٢٧٣ » ٠

وذلك ضابط دقيق رسمه القرآن لمعرفة الفقراء الحقيقيين الذين يستأهلون الصدقة ويستحقون الاحسان ٠٠ أما الذين يلحون فى السؤال ويلحون فى استمطار الرحمة من القلوب والدمعة من العيون أولئك الذين ارتضو الذل وضربت عليهم المسكنة لا يلقون الله يوم يلقونه بمزعة لحم كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام

« لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس بوجهه مزعة لحم » .

ان تنظيم الانفاق يجب أن يخضع للقاعدة القرآنية « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل (التوبة ٦٠) » . فالفقير من لا يملك قوت يوم وليلة والمسكين من يستحق العطف بمعرفة سابقة أو أقعده المرض الحقيقى عن العمل ، على أن تضع وزارة الشئون الاجتماعية التنظيمات التى يتعرف بها المصرف الحقيقى للانفاق ويومها تحل مشكلة التسول ويبرز المجتمع فى صورته اللائقة .

وعلى الحكومات الاسلامية كذلك واجب أساسى ـ سنتعرض له عند الحديث عن نظام الحكم ـ فى ايجاد عمل لكل طالب عمل ، وان تنظم موارد الدولة بحيث تقضى على كل بطالة قد تسبب أثرا للفقر أو التسول .

الفصل الخامس

نظام الحكم فى الاسلام

الفصل الرابع

نظام الحكم في الاسلام

نظام الحكم فى القرآن نظام يقوم على أســاس متين مــن العدل والشورى ٠

وطريقة انتخاب الخلفاء الأربعة الذين تولوا الحكم على هدى القرآن تجعلنا نؤمن بمثالية هذا النظام السياسى الذى استطاع أن يمد الناس بالرخاء ويزودهم بالسعادة فى مجتمع الراشدين الأولين ٠

ولئن جاز لنا أن نستعمل التعبير الحديث فى نظريات الحكم والسياسة كان أقرب التعبيرات الى حكومة الاسلام أنها الحكومة الديمقراطية بل هى بالتأكيد أقل كثيرا من نظام الاسلام ٠

فمن قبل وفاة الرسول ومن بعدها حتى الآن والمســـلمون يقرأون « ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولــك فاعف عنهم واســتغفر لهم وشاورهــم فى الأمر[١] » كما يقــرأون « وأمرهم شورى بينهم (٢) » ٠٠

ومن يومها كانت الشورى ولا تزال أهم أصول الحكم فــى الاسلام ذلك الحكم الذى يرتكز بعد الشورى على العــدل ولا يعرف غيره سبيلا لاقامة المجتمع واشاعة الأمن فيه ٠

وبهذا كان نظام الاسلام فى الحكم نظاما لا يفرق بين الناس فى الحقوق والواجبات فهم فيها سواء لا فضل لانسان على انسان

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩ ٠ (٢) سورة الشورى الآية ٣٨ ٠

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم (١) » ومن هنا وما دام الناس سواء فيجب أن لا ينصب الحاكم منهم إلا بالشورى وبرضا الجميع على أن يجعل العدل قوام حكمه وأساس ملكه ودولته .

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان (٢) » « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به (٣) » .

ولقد قرر الاسلام النقد البناء الذى يهدف الى تطهير المجتمع بعيدا عن الاحقاد والضغائن فقرر من أجل ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهن عن المنكر وأولئك هم المفلحون (٤) » « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر[٣] » « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » فالسكوت على المنكر شىء مستقبح وخيم الأثر سىء النتائج على المجتمع فلا يرضاه الاسلام .

ولقد نهى القرآن عن تأليه ما دون الله من الحكام أو الطغاة فقال « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا (٦) » ولذا قرر نقد الحاكم المعوج الذى لا يقيم حدود الله .

ولقد وقف أول خليفة مسلم ليقول « أيها الناس : انى وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتمونى على حق فأطيعونى وان

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٢ .
(٢) سورة النحل الآية ٩٠ .
(٣) سورة النساء الآية ٥٨ .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .
(٥) سورة آل عمران الآية ١١٠ .
(٦) سورة النساء الآية ٣٦ .

رأيتمونى على باطل فقومونى .. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فان عصيت فلا طاعة لكم عندى . »

وجاء من بعده خليفته عمر بن الخطاب وقد كان معروف بقوة الشخصية حتى لقد رماه بعض المستشرقين بالغطرسة والاستعلاء .

وقف يوما يسأل الناس التخفيف فى المهور فقامت امرأة أجل امرأة وقالت لا يا عمر « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا .. أتأخذونه بهتانا واثما مبينا (١) » .

فنزل عمر عن قوله ولم يأنف من قولته الخالدة على الزمن « صدقت امرأة وأخطأ عمر » .

وقف يوما ليقول مثل مقالة أبى بكر « ان رأيتمونى على حق فأطيعونى وان رأيتم فى باطلا فقومونى » فقام أحد السامعين ليقول له فى جفاء الذى لا يعرف الا الكلمة على لسانه ، لا يمنعها منه سلطان ولا أبهة دولة والله يا عمر لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا » فيحمد عمر الله أن وجد فى أمة محمد من يقتل عمر بالسيف على الباطل .

وهكذا فصل أبو بكر وعمر نظرية الحكم فى القرآن تفصيلا لم تطقه حتى الآن فلسفة الغرب ولا تلاميذه .

شورى وعدالة ونقد وحرية وكفالة للحقوق السياسية والاجتماعية وضمانا لتنفيذ ذلك كله فى أسلوب عربى بسيط مستوحى من القرآن ومن تعاليم القرآن .

---

(١) سورة النساء الآية ٢٠ .

مسئولية الحاكم نحو المحكومين :

فسرها الرسول عليه الصلاة والسلام بالمسئولية فى قولـه عليه الصلاة والسلام « كلكم راع وكل راعٍ مسئول عن رعيته » .

وفسرها الصديق بكلمته السابقة « الضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه » .

ولخصها القرآن فى كلمتين اثنتين العدل والأمانة « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان اللـه نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا[1] » .

فلهم عليه العدل فيهم وبينهم ، وضمان حقوق كل منهم من أنفسهم وفى المجتمع ولهذا يقـول القرآن « كونوا قـوامين بالقسط[2] » « اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

ويجب عليه أن يحكم فيهم بما أنزل الله وان يتقى الله فيهـم بامتثال أوامره وتجنب نواهيه ، والاهتداء بسنة النبى فلا يسند أمرا الى غير أهله ولا يضيع حقا ولا يغش مسلما ولا يقبل رشوة ولا يأكل أموال الناس بالباطل ولا يدخر وسعا فى السـهر على المصلحة والارعاء على الخلق وان يعامل غيره بما يحب أن يعامله به كما لو كان محكوما .

كما يجب عليه أن يستشير من دونه فى الحكـم فلا يستبـد

---

(١) سورة النساء الآية ٥٨ . (٢) سورة النساء الآية ١٣٥ .

بالأمر دونهم « وشاورهم فى الأمـــر[1] » وأمرهم شـــــورى بينهم[2] » وأن يعمل على السلام بين الناس جميعا « يا أيهـــا الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة[3] » وأن لا يتواطأ مع أعداء الشعب « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أوليـــاء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق[4] » « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين[5] » « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء[6] » وأن يعمل على الاصلاح بين الناس والمساهمة بدور فعال فى ايجاد الحلول الســـليمة النزيهة عـــن الغرض لما يطرأ على العالم من مشـــكلات « وان طائفتـــان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله فان فاءت فأصلحـــوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين » « انما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم[7] » كما يجب أن يعمل باخـــلاص لصالح الأمة والمجتمع بحيث لا يصرفه سلطان الحكم ولا أبهـــة الدولة عن هذا العمل المخلص الخلاق •

وللرعية عليه حق الأمانة على مقدراتهم ومصائرهم وأرزاقهم وسائر ما يتعلق بهم من شئون الحياة •

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩ •
(٢) سورة الشورى الآية ٣٨ •
(٣) سورة البقرة الآية ٢٠٨ •
(٤) سورة الممتحنة الآية ١ •
(٥) سورة النساء الآية ١٤٤ •
(٦) سورة آل عمران الآية ٢٨ •
(٧) سورة الحجرات الآية ٩ ، ١٠

مسئولية المحكومين نحو الحاكم :

فان أدى الحاكم الأمانة وأقـام العدالة كان له عليهم حـق السمع والطاعة فاذا ما حاد عن طريق الجادة وسلك سبيل الظلم والخيانة كان عليهم أن ينصحوه ويهيبوا به أن يعود الى أمر الله و « الدين النصيحة » « ولتكن منكـم أمة يدعون الى الخيـر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[1] » فان فعل جددوا العهد والطاعة والا فاقامة حدود الشرع عليه هو كما ذكرت تفصيلات التشريع الاسلامى ..

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

خاتمة

١٨

المجتمع القرآنى ..!!

والآن مع النهاية والقلم يتهادى بعد تلك المرحلة القصيرة التى قضاها يتفيأ ظلال الاعجاز القرآنى وما رسمه للمجتمع وخططه للأمة .. الآن مع هذه النهاية تتراءى لنا من قريب صورة المجتمع الاسلامى كما وردت معالم هذا المجتمع فى القرآن الكريم .

فالمجتمع الاسلامى كما يصوره القرآن الكريم .. هو المجتمع المثالى الذى ارتضاه لأمته كخير مجتمع تتكافأ فيه الفرص ويأخذ كل فرد حقه فيه .

ففى مجال الشورى رأينا أن القرآن ضمن لكل انسان حقوقا قصر دونها باع الفلسفة وعجز الفلاسفة جميعا عن فلسفة هذه الحقوق وبحسبنا هنا فى هذه اللمحات التى نستعيد فيها بسرعة ما كتبناه فى هذا الكتاب ..

أن القرآن كرم الانسان من حيث هو انسان « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (١) » .

فالكرامة ثابته للناس جميعا كحق لكل انسان وما دامت الكرامة للناس جميعا فلا فضل لانسان على انسان فالكل سواء فى شرعة القرآن « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم(٢) » .

---

(١) سورة الاسراء الآية ٧٠ . (٢) سورة الحجرات الآية ١٢ .

ولقد روى البزار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « يأيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود ولا أحمر فضل الا بالتقوى » •

ولقد كان القرآن ضربة قضت على الفوارق الطبقية والعنصرية كما قضت على طائفة المتعالين أصحاب الدم الأزرق الذين يسخرون البشر ويتألهون من دون الله فنهى عن الاشراك به بعد الأمر بعبادته •

قال تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا[1] » ولعل فى التعميم بلفظ الشىء ما يقصد به من كل ما عدا الله من جن وملائكة وأناس ومال وثروة وجماد أو حيوان •

وهنا قد تعترض طريقنا آية يحسبها بعض الأغرار أنها تنفى المساواة فى القرآن وتلك قوله تعالى « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق (٢)» وآية «نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا[3] » •

ولكن التفضيل هنا على حسب الكفاءة والقدرة وعلى حسب العمل والانتاج وليس التسخير تسخير ذل واستعباد انما هو تسخير مصلحة ومنفعة وانتاج •

وما دام الناس سواء فى نظر القرآن فيجب أن تقوم الشورى وتسود أو تقوم الديمقراطية بالمعنى الحديث ويجب أن يختار

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦ • (٢) سورة النحل الآية ٧١ •
(٣) سورة الزخرف الآية ٣٢ •

الشعب حاكمه من نفسه على أساس من حرية المبايعة والانتخاب « وأمرهم شورى بينهم[1] » « وشاورهم فى الأمر [2] » .

على ألا تحول أبهة الحكم وسلطته دون النقد الذاتى للحاكم والمحكومين على حد سواء ورحم الله أبا بكر رضى الله عنه فلقد قال ابان الحكم والخلافة « ان رأيتمونى على حق فأطيعونى وان رأيتمونى على باطل فسددونى » .

والخطة الاجتماعية .. فى القرآن . تعاونية أخلاقية انسانية فهى لا تهدم الفرد فى بناء الدولة بل تقدس حقه وتحترمه فلا تسلمه ولا تظلمه وهو أولا والدولة ثانية .

هذا فى الوقت الذى تأمر فيه بالتعاون بين الأفراد على ما يحقق سلامة المجتمع ورفاهيته « وتعاونوا على البر والتقوى[3] » . فالناس فى نظرها أخوة متساوون « انما المؤمنون أخوة[4] » .. فيجب أن تسود العدالة بينهم « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل[5] » كما يجب أن يسود التضامن والانسانية والاحسان « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون[6] » .

---

(١) سورة الشورة الآية ٣٨ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .
(٣) سورة المائدة الآية ٢ .
(٤) سورة الحجرات الآية ١٠ .
(٥) سورة النساء الآية ٥٨ .
(٦) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

كما أقرت الزكاة وفرضتها ركنا من أركان الايمان « وفـــى أموالهـــم حق للسائل والمحـــروم[1] » « بنـــى الاسلام عـــلى خمس شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وأقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله لمن استطاع اليـــه سبيلا » •

والقرآن يكره أن يكون الانسان عبدا للمـــادة « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقنـــــاطير المقنطر من الذهـــب والفضة[2] » والبخل رذيلة مقتتها فى قوله تعالى « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما أتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا[3] » ••

والقرآن يكره الفقر والعجز والكسل والتسول ويرى العمل واجبا والتضامن انسانية والتعاون قواما للحياة بين الناس •

قال عليه الصلاة والسلاه « كاد الفقر أن يكون كفرا » وقال : « اللهم انى أسالك التقى والهدى والعفـــاف والغنى • وقـــال : اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل ، وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق •

وعندما يحث القرآن المسلم على العمل فلا يتركه ينغمس فى هذا العمل انغماسا ينسيه نفسه وحقوق بدنه بل يفرض عليه أن يجدد نشاطه بقسط من الراحـــــة وأن يتزود لنفسه بقدر مـــن الروحانية التى تلفت نظره على مختلف ساعات اليوم حســـب

---

(١) سورة الذاريات الآية ١٨ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٤ .
(٣) سورة النساء الآية ٣٧ .

فروض العبادة الى وجوده الاسمى فى هذه الحياة هذا الوجود الذى يحقق له الصلة بالله والتماس مرضاته ، فالفرد فى القرآن ليس اذن آلة للانتاج كما تقول الماركسية انما هو انسان لـــه عواطفه ومشاعره وله متطلباته الروحية التى تفوق مطالبه المادية وما عداه من الآلات انما هى مسخرة لراحته وخدمته وتوفيـــر الجهد الذى يضنيه « ان لنفسك عليك حقا وان لبدنك عليك حقـــا وان لزوجك عليك حقا » .

• • •

وبهذا تنتهى وقفتنا الموجزة فى هذا الكتاب الذى حاولنا فيه ترسم معالم المجتمع القرآنى فى المجالين الروحى والمادى .. هذا المجتمع الذى أراده الله وارتضاه وكنا به خير أمة أخرجت للناس هذا المجتمع الذى توزن به المجتمعات فى الأرض لأنه هو وحده كلمة الحق من الله لعباده وهو الحق المبين ..

المراجـــــع ٠٠!

١ ـ القرآن الكريم	
٢ ـ اعداد من مجلة منبر الاسلام	يصدرها المجلس الاعلى للشئون الاسلاميـــة بوزارة الاوقاف .
٣ ـ اعداد من مجلة الأزهر	
٤ ـ الاستاذ عباس محمود العقاد	اللـــه
٥ ـ الاستاذ عباس محمود العقاد	المراة فى القرآن الكريم
٦ ـ الامام الاكبر الشيخ محمود شلتوت	القرآن والمراة
٧ ـ الامام الاكبر الشيخ محمود شلتوت	منهج القرآن فى بناء المجتمع
٨ ـ الشيخ عبد العزيز جاويش	الاسلام دين الفطرة والحرية
٩ ـ لجنة من وزارة المعارف (سابقا)	الدين الاســـلامى
١٠ ـ الدكتور على عبد الواحد وافى	المساواة فى الاسلام
١١ ـ الدكتور محمود سلام زناتى	تعدد الزوجات لدى الشعوب الافريقية
١٢ ـ الاستاذ كمال أحمد عون	المراة فى الاســـلام
١٣ ـ الاستاذ ابراهيم محمد اسماعيل	الاسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة
١٤ ـ الاستاذ محمد عبد الفتاح الشهاوى	الأسرة فى المجتمع العـــربى بين الشريعـــــة الاسلامية والقانون

تصـــويب

الصفحة	السطر	الخطــا	الصواب
٥	٣	قوتان تتنازعان	قوتان هما الفــرس والروم تتنازعان
١٨	٢٠	٢٤	٢٣
١٩	٢٠	خلفهم وعن شمائلهم	خلفهم وعن ايمانهم وعــن شمائلهم
٢٢	١٨	شـــورة	سورة
٢٣	١٨	سبحانك	سبحانك(١) »
٢٥	١٢	٣٦	٢٦
٢٧	١٠	ان الله	أنـــا
٢٩	١٨	بكم رءوفا رحيما	بكم رحيما
٣٦	٢١	٥٣	٥٢
٣٦	٢٢	الزلزلة	الزلـــزال
٣٧	٢٠	بينهم	بهـم
٣٨	٨	أشركتمونى	أشركتمون
٤٢	١٠	الصالحات وآمنوا	الصالحات ثم اتقوا وآمنوا
٥١	١١	لتيضقوا	لتضيقوا
٥٤	٩	دينـــه	ودينـــه
٥٩	١٦	حتى انه	حتى أن
٦٢	الحاشية	٣٠	٣
٦٨	١	والتـــى	والـــلاتى
٧٦	٢	اساءة المراة	اساءته الى
٧٦	١٩	المتقين (١)	المحسنين(٢)
٧٦	الحاشية	سورة البقرة (٣٣٦)	(١) سورة البقرة ٢٢٩ (٢) سورةالبقرة ٢٣٦
٧٧	٢	لتتضيقوا	لتضيقوا
٧٩	١٦	أيـــة	أيـــه
٨٠	٢١	لكم واطهر والله	لكم والله
٨٢	الحاشية	الاحقاق	الاحقاف
٨٨	١٣	أموالهم يؤثرونهم	أموالهم والانصار يؤثرونهم

تابع التصويب

الصفحة	السطر	الخطـــا	الصواب
١٠٣	١٦	٢٩	٣٩
١٠٦	١٤	آ عمران	آل عمران
١١٠	٥	٤٣	٤٢
١١٤	١٧	٣٦ ، ٣٧	٢٦ ، ٢٧
١١٤	٢١	تبـــادا	تبـــارا
١٢٢	٢٠	تعملو خبير	تعملون خبير
١٢٣	٤	كعاملة	كمعاملة
١٢٣	٤	أشـفت	انتفت
١٢٣	٢٠	١٥٣	١٥٢
١٣٤	٥	١٧٦	١١
١٤٧	٦	سلام ويونس	سلام (يونس ١٠) »
١٤٧	١٧	عليكم السلم	اليكم السلم
١٥٣	١٤	حرج الحج	حرج (الحج
١٥٧	١	الفصل الرابع	الباب الخامس
١٥٨	٩	ينهـــن	ينهون
١٥٩	٣	معـــروف	معـــروفا

فهرس الكتاب



مطابع مؤسسة فهد المرزوق الصحفية ــ الكويت